



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة 8 ماي 1945 قالمة  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
قسم التاريخ



العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية مع الدول المجاورة عهد صلاح الدين  
الأيوبي

569هـ - 589هـ / 1174م - 1193م

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر تخصص تاريخ وحضارة المشرق الإسلامي

إشراف الأستاذ الدكتور:

كمال بن مارس

إعداد الطالبة:

• سباق نادية

الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
أ. د/ أولاد ضيايف رابح	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة 08 ماي 1945
أ. د/ بن مارس كمال	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة 08 ماي 1945
أ. مباركية عبد القادر	أستاذ مساعد (أ)	ممتحنا	جامعة 08 ماي 1945

السنة الجامعية: 1442هـ - 1443هـ / 2021م - 2022م

باسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا  
مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ  
وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت: 46]

## شكر وعرفان:

قبل كل شيء أشكر الله عزّ وجل الذي بتوفيق وفضل منه تمكنت من إنجاز هذه المذكرة. أتوجه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان والاحترام والتقدير العميق للأستاذ الفاضل الدكتور "بن مارس كمال" الذي أفادني كثيرا بإشرافه على مذكرتي وما منحه لي من وقت وجهد وإرشاد وتوجيه، أرجو من الله أن يحفظه ويرزقه الصحة والعافية ويجعل خير الجزاء في ميزان حسناته، أطال الله في عمره وأبقاه ذخرا لجامعتنا.

كما أتقدم بالشكر إلى رئيس القسم وجميع الأساتذة بقسم التاريخ وبالأخص أساتذة المشرق الإسلامي الذين أشرفوا على تدريسنا خلال طور الماستر.

أقدم شكري إلى زملائي وزميلاتي الذين قدموا لي المساعدة مهما كانت طبيعتها أخص بالذكر زميلي بزغوش زكرياء، وإلى كل من قدم لي تشجيعا مهما بلغت درجته.

## إهداء

إلى من شرفني بحمل اسمه، والذي رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته...  
من بذل الغالي والنفيس من أجل وصولي لدرجة علمية عالية ورحل قبل أن يرى ثمرة غرسه.  
إلى نور عيني وضوء دربي ومهجة حياتي، أمي ثم أمي ثم أمي... من كانت دعواتها وكلماتها رفيق  
التفوق حفظها الله ورعاها واطال عمرها.  
إلى السند والعضد والساعد إخوتي وأخواتي أزف لكم هذا الإهداء حبا ورفعة وكرامة.  
إلى كل من علمني حرفا طول مشواري الدراسي.  
إلى كل من ساندني ولو بابتسامة.

سباق نادية

# المقدمة

## المقدمة:

الحمد لله الذي علا فقهر، وملك فقدر، وعفا فغفر، وعلم وستر وهزم وخلق ونشر أما بعد:

- فالتاريخ معلم الشعوب، وهو المرآة الناصعة التي تنعكس عليها صورة القادة وأفكارهم وأعمالهم حتى يكونوا قدوة لشعوبهم في حياتهم وبعد موتهم.

تعتبر فترة العصور الوسطى من أهم الفترات التي شهدت صراعات بين العالمين الإسلامي والصليبي الأوروبي، ولم تقتصر هذه الصراعات على العمل العسكري والمواجهة المباشرة فحسب، بل استخدمت الدبلوماسية كوسيلة لتحقيق الأغراض السياسية، وانعكاس ذلك على العلاقات الاقتصادية والثقافية بين هذه الدول فيما بينها.

وعليه شهد العالم الإسلامي ظهور الكثير من الدويلات المستقلة عن الخلافة العباسية، نتيجة ضعف هذه الأخيرة، ومن هذه الدول: الدولة الأيوبية التي نشأت في منطقتي المشرق الإسلامي، الذي كان يعاني من ويلات الحروب الصليبية، ونشأت بين هاتين القوتين علاقات تميزت بالسلم تارة والحرب تارة أخرى، فكان للدولة الأيوبية أيضا بحكم موقعها الجغرافي، صلات بينها وبين بقية الدول المجاورة لها على غرار الصليبيين، وهو ما سيتم التطرق له في هذا البحث.

إن قيام الدولة الأيوبية على أنقاض الخلافة الفاطمية في مصر، يعد امتدادا للصراع الإسلامي الصليبي الذي بدأ على عهد الدولة الزنكية بقيادة عماد الدين زنكي، ووصله من بعده أخيه نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي قاد المسلمين بفضل حنكته وذكائه نحو أمجاد وانتصارات، كانت بمثابة أمان لمن سبقوه، حيث أخذت الدولة الأيوبية بقيادته على عاتقها مهمة الدفاع عن العالم الإسلامي، ونبتد التفرقة والعداء الداخلي بين المسلمين، وحثهم على تكوين جبهة إسلامية متحدة، على عاتقها مهمة نبيلة تقتضي إعلاء كلمة الحق ونصرة الإسلام.

## 1) حدود الدراسة:

أ. الحدود المكانية: مصر وبلاد الشام والجزيرة

ب. الحدود الزمنية: حددت فترة الدراسة بحكم صلاح الدين مصر وبلاد الشام والجزيرة واستمرت من 569هـ إلى 589هـ/ 1174م إلى 1993م.

اعتمدت الدولة الأيوبية طرق وأساليب عديدة تقتضي حفظ صورة الإسلام، وتثبيت قواعده، فكانت علاقات مع الدول المجاورة لها، ومن بين هذه العلاقات، العلاقات الدبلوماسية وهو ما ركز عليه موضوع الدراسة، ومن هذا المنطلق تبدأ الدراسة، حيث كونت الدولة الأيوبية في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي علاقات دبلوماسية مع العديد من الدول المجاورة لها، نتجت هذه الصلات نظرا لطبيعة الواقع الذي تفرضه الحدود الجغرافية ومحاوله كل دولة تحقيق مبدأ توازن القوى، ومنها حملت هذه الدراسة عنوان: العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية مع القوى المجاورة عهد صلاح الدين الأيوبي (569هـ - 589هـ/ 1174م - 1193م)

## 2) أهمية الدراسة

بما أن الجانب السياسي يعد من بين أهم الجوانب التي تهتم بها الدولة، وتعتبر الرابط الرئيسي والوسيلة الأولى للتواصل بين الدول، واعتماد أسلوب الاتفاقيات والتبادل التجاري، جاءت هذه الدراسة لتبيان أهمية المعاهدات والمراسلات التي قامت في عهد الدولة الأيوبية لا سيما في فترة حكم السلطان الناصر صلاح الدين، وتقديم صورة واضحة حول السياسة التي انتهجها هذا الأخير مع الدول المجاورة، ومدى نجاح هذا الأسلوب على المستويين الداخلي لفائدة الدولة، والخارجي في علاقاتها مع جيرانها، وتسليط الضوء على أبرز المعاهدات التي عقدها السلطان الناصر، والتي قام ببعثها إلى مختلف الأمصار أو التي وصلته، وتأثير ذلك على كيان الدولة الأيوبية في عهده، والمساهمة في القضاء على التفرقة وتحقيق الوحدة الإسلامية والتي أدت أيضا إلى تحقيق الانتصارات والفتوحات في عهده.

## 3) دوافع اختيار الموضوع

يعود سبب اختياري لهذا الموضوع إلى جانبين أحدهما موضوعي والآخر ذاتي:

### أ. الأسباب الموضوعية:

**أولاً:** تسليط الضوء على جانب مهم من جوانب الصراع الإسلامي مع الدول المجاورة، ألا وهو الجانب السياسي في منطقته المشرق الإسلامي.

**ثانياً:** العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية، موضوع قليل البحث، رغم غزارة مادته العلمية بين التاريخ العسكري والحضاري والثقافي، ما يحتاج منا إلى تمحيص وانتقاء للمادة الخيرية، بحكم التخصص الذي أدرسه في طور الماجستير.

**ثالثاً:** يغطي هذا البحث فترة زمنية مليئة بالأحداث العسكرية والتي تتخللها المفاوضات وفترات الصلح ووقوع الهدنات ونبذ العمل العسكري، فلاحظت ضرورة الوقوف على ماهية العمل الدبلوماسي في هذه الفترة.

**رابعاً:** لقد كانت أغلب اهتمامات الدراسات والأبحاث تركز على التاريخ الدبلوماسي بشكل عام، مع القليل من الدراسات بشأن المفاوضات والاتفاقيات المعقودة من طرف السلطان الأيوبي صلاح الدين ومعهده مع الدول المجاورة.

**خامساً:** معرفة الأسباب التي أدت بالسلطان الناصر إلى انتهاج أسلوب العمل الدبلوماسي.

**سادساً:** محاولة رسم صورة واضحة للأحداث السياسية التي دارت بين ملوك وحكام الدول المجاورة لدولة صلاح الدين وبين السلطان الناصر في تلك الفترة.

**سابعاً:** عدم التطرق من قبل الباحثين في هذا المجال إلى العلاقات الدبلوماسية بوجه خاص، والابتعاد عن الدقة في التفصيل في هذه المعاملات الدبلوماسية.

## ب. الأسباب الذاتية:

أولاً: الميول الشخصي نحو فترة تاريخ الدولة الأيوبية والإعجاب بشخصية صلاح الدين الأيوبي وكفاحه في سبيل تحرير الأراضي الإسلامية من الأطماع.

ثانياً: ضرورة البحث في العلاقات الدبلوماسية الأيوبية مع الدول المجاورة لها في العصر الوسيط في منطقة المشرق الإسلامي بوجه الخصوص، ومعرفة مدى تأثيرها على مكانة واستمرارية الحكم الإسلامي بين الشعوب المجاورة لها في تلك الفترة.

## 4) إشكالية الدراسة

صادفت خلال إنجازي لهذا البحث مجموعة من التساؤلات المحورية والتي كان لا بد لي من تسليط الضوء عليها للخروج بإشكالية شاملة وجوهرية، فجاءت على النحو التالي: إذا كان الأسلوب الدبلوماسي كفيلاً بنشر السلم ونصرة الدول والشعوب بعيداً عن الحروب والمواجهة المباشرة، فإلى أي مدى انعكس ذلك على السلطة الأيوبية في علاقاتها مع القوى المجاورة لها، وكيف نفسر طبيعة هذه العلاقات؟

وقد تفرعت هذه الإشكالية إلى مجموعة من التساؤلات:

1. هل قامت العلاقات بين الأيوبيين والدول المجاورة لها على أساس الدبلوماسية أم انتهجت هذه القوى مع بعضها البعض أساليب معينة، وهل انتهج صلاح الدين مع كل من هذه القوى نفس الأسلوب؟
2. كيف ساهمت السياسة التي انتهجها صلاح الدين في قلب موازين الأحداث على المستوى الخارجي، وهل كان لهذه السياسة أثر إيجابي أو سلبي على تثبيت دعائم الدولة والأمة الإسلامية عموماً؟
3. هل للأحداث والوقائع التاريخية في تلك الفترة دور أدى بصلاح الدين ليسلك طريق المفاوضات والمراسلات والمعاهدات السفارات؟
4. إلى أي مدى نجح السلطان الناصر عند قراره اللجوء إلى العمل السياسي في علاقته مع باقي الإمارات والقوى المتنافسة على زعامة العالم.

## 5) عرض الفصول وعناصر البحث:

واعتماداً على المصادر والمراجع وجمع المادة العلمية كان البحث في ثلاث فصول وفصل تمهيدي.

فكان الفصل التمهيدي بعنوان: لمحة عن قيام الدولة الأيوبية قسم إلى أربعة مباحث، عرجت في البداية لنسب الأيوبيين، وخصصت المبحث الثاني لمعرفة اللبنة الأولى لبداية حكمهم، وكيفية تولد دولتهم، أما المبحث الثالث فكان تحت عنوان الحملة النورية على مصر وتطرقت فيها للحديث عن الظروف الداخلية في مصر قبل مجيء الحملة النورية على مصر، وأخيراً المبحث الرابع بعنوان: تولي صلاح الدين الوزارة على مصر، تضمن ظهوره على مسرح الأحداث واهتماماته في القضاء على المذهب الشيعي وتنصيبه وزيراً على مصر من قبل الخلافة.



وخصص الفصل الأول للحديث عن العلاقات التي كانت تربط صلاح الدين مع الزنكيين تحت عنوان: صلاح الدين والزنكيون، والذي ضم أربعة مباحث أيضا تمحورت في بدايتها: نهاية الحكم الفاطمي وأثره على العلاقات بين الطرفين، "نور الدين محمود وصلاح الدين"، أما المبحث الثاني تم الحديث فيه عن العلاقات بين صلاح الدين وابن نور الدين محمود الصالح اسماعيل بعد وفاة أبيه، وتأثير وفاته على تغير مجريات الأحداث السياسية، والمراسلات التي حدثت في هذه الأوضاع، والمبحث الثالث والرابع فكان مخصصين للحديث عن التوسعات التي قام بها صلاح الدين في بلاد الشام وسعيه لتحقيق الوحدة الإسلامية، والدور الذي لعبه صلاح الدين بعد وفاة الصالح اسماعيل والمراسلات التي دارت بينه وبين الخلافة العباسية، وسعيه للتصدي لأمرأ الصالح اسماعيل الطامعين في الحكم.

وجاء الفصل الثاني بعنوان: سياسة صلاح الدين مع القوى الإسلامية، في ثلاثة مباحث، استهل المبحث الأول بالحديث عن علاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية، والمبحث الثاني بعنوان حول صلاح الدين والاسماعيلية وفي الأخير المبحث الثالث جاء بعنوان: صلاح الدين وسلاجقة الروم بقيادة السلطان السلجوقي قلع أرسلان.

أما الفصل الثالث تناولت فيه الحديث عن الدبلوماسية الأيوبية مع الإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية، وتطرت أولا: للحديث عن علاقة صلاح الدين مع الصليبيين، وتكررت الدراسة على ثلاث مباحث أساسية، المبحث الأول من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين 570هـ-582هـ / 1174م-1186م، أما المبحث الثاني كان بعنوان الدورة الثانية من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين 583هـ-588هـ / 1186م-1193م، وجاء المبحث الثالث بعنوان صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة.

أما ثانيا فكان بعنوان صلاح الدين والإمبراطورية البيزنطية، وقسمت على النحو التالي: المبحث الأول بعنوان بداية التقارب السياسي، والمبحث الثاني والثالث بعنوان صلاح الدين والإمبراطور كومنين أندرونيقوس، والإمبراطور أنجلوس، والمراسلات التي كانت بين صلاح الدين وهذين الإمبراطورين، وقد ختمت كل فصل بجملة من التعليقات والتعقيبات كاستنتاجات عامة حول موضوع الدراسة.

وقد أفردت موضوعي بجملة من الملحقات تتمثل في مجموعة من الخرائط والمراسلات والصور.

## 6) الدراسات السابقة:

على الرغم من قلة الدراسات المتعلقة بالموضوع بصفة مباشرة، إلا أنني استطعت أن أتوصل على البعض منها، التي يندرج مضمونها في شكل من أشكال الدبلوماسية في عهد صلاح الدين مع الدول المجاورة، ومن أهم هذه الدراسات التي أتاحت لي الفهم الجيد لموضوع البحث، وأزاحت لي بعض العقبات نجد أولها: دراسة الباحث نوري دريد عبد القادر التي جاءت بعنوان: سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، وتتمثل في رسالة ماجستير بجامعة بغداد، عنيت دراسته بعلاقة صلاح الدين الأيوبي مع الدول المجاورة، لكنه لم يتعمق بخصوص المراسلات المتبادلة بين المسلمين والدول والإمارات التي كانت له علاقات دبلوماسية معها.

أما الدراسة الثانية فهي للكاتب: محمد سهيل طقوش، الذي استعنت بثلاثة من مؤلفاته، أفادتني كثيرا في أخذ أفكار مهمة حول الموضوع، لكنه بدوره لم يتفق في مجال السفارات والمراسلات بوجه الخصوص التي كانت قد اتبعتها السلطنة الأيوبية مع بقية الدول التي أقامت معها علاقات اقتصادية.

أيضا الدراسة الثالثة بعنوان: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة لزمان الحروب الصليبية للكاتب: عادل عبد الحافظ حمزة، احتوى كتابه على حيز كبير من العلاقات المتبادلة بين الطرفين أيام الحروب الصليبية، وانطلقت منه لفهم ما حوته العلاقات بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والبيزنطيين، لكن المحتوى لم يكن يفي بقدر كاف لمضمون الدراسة.

## 7) منهج الدراسة:

لمعالجة هذا الموضوع اتبعت المنهج التاريخي الوصفي الذي يهدف إلى وصف محتوى المادة المعرفية، التي تم الاعتماد عليها من خلال المصادر المعتمدة في دراستها في تلك الفترة، والذي يتطلب جمع المعلومات والروايات التاريخية المتنوعة من مصادر ومراجع عربية أو أجنبية، كما دعمته بالمنهج التحليلي، من خلال تحليل ردود الأفعال جزاء هذه الممارسات السياسية بين الأطراف وبين صلاح الدين، وذلك لتغيير حيثيات الأحداث وظروفها ونتائجها وانعكاسات ذلك على الدولة الأيوبية.

## 8) صعوبات الدراسة

بطبيعة الحال كل باحث مبتدئ سيواجه صعوبات أثناء إعدادة أي دراسة، ومن الصعوبات التي واجهتها أثناء قيامي بهذا العمل:

- عدم وجود مصادر متخصصة تتناول بصفة مباشرة موضوع العلاقات السياسية لصلاح الدين مع الدول المجاورة.
- صعوبة جمع المادة العلمية المتواجدة في بطون الكتب وكذلك صعوبة اقتناء المصادر الأجنبية التي تعتبر أساسية نظرا لتوفرها بالعملة الصعبة.

## 9) عرض المصادر والمراجع:

اعتمدت خلال إنجازي لهذا العمل بجملة من المراجع والمصادر الأساسية التي تفاوتت أهميتها من مصدر لآخر من خلال معاصرة الفترة أو من حيث المادة العلمية التي تخدم مجال الدراسة، كانت على النحو التالي:

أ. المصادر:

- كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية: للمؤرخ ابن شداد أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الأسدي الموصللي المشهور بابن شداد، توفي سنة 632هـ / 1284م، استدعاه صلاح الدين الذي كان قد أعجب بكتاباتة، ولازم ابن شداد الملك الناصر فعينه قائدا للعسكر، لهذا فهو يكون شاهد عيان على حصار عكا

- ومعركة أرسوف التي دارت بين المسلمين والصليبيين، وكان مقربا منه وواحد من أصدقائه ومستشاريه لبقية حياته، أفادني كثيرا في معرفة الوقائع التاريخية بالتفصيل، نظرا لمعايشته تلك الفترة من التاريخ الوسيط.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية: للكاتب أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بابن شامة، المتوفي سنة 665هـ/ 1267م، أفادني هذا الكتاب بأجزائه في ذكر الجريبات والأحداث المهمة والتي تثنى مواقف السلطان الناصر، ومنجزاته الخالدة، والسياسة التي اتبعها مع كل من هذه الدول المجاورة لدولته.
- كتاب مفرج الكرب في أخبار بني أيوب: للمؤرخ جمال الدين محمد بن سالم بن ناصر المعروف بابن واصل الحموي الشافعي، المتوفي سنة 697هـ/ 1298م، عمل قاضي في أواخر العصر الأيوبي، وقد اعتمدت على جزئيه الأول والثاني، ومما ميز هذا الكتاب عن باقي المصادر التي أرخت لهذه الحقبة التاريخية، اعتبار أن بقية المصادر أرخت لصدري الدولة وسنواتها الأولى، بينما هذا الكتاب تميز بالحديث عن تاريخ وأخبار الدولة الأيوبية منذ قيامها إلى غاية زوالها، وهو عبارة عن كتاب ضخيم يشمل على حوادث متتابعة سنة بعد الأخرى، مما سهل عملية البحث من خلال الاعتماد على تواريخ الأحداث وربطهما بموضوع البحث.
- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك: للمؤرخ المقرئ الذي خص كتابه بالحديث على تاريخ الأيوبيين والمماليك وتمثل أهميته في عرضه للأحداث والوقائع السياسية للدولة الأيوبية مع باقي الدول المجاورة.
- الكامل في التاريخ: لابن الأثير عز الدين علي بن أبي الكرم محمد عن الحرث الشيباني، توفي بتاريخ 630هـ/ 1233م، أفادني بجزئين 09-11 نظرا لاحتوائهما على المادة الخبرية التي تفيدني في معرفة الأحداث المتتابعة في علاقات السلطان ومراسلاته مع مختلف الدول التي تعامل معها، وكذلك إنجازاته التي حققها.
- الأصفهاني: وهو الكاتب الشخصي لصلاح الدين في كتابه الفتح القسي في الفتح القدسي.

### ب. الطبقات والتراجم:

- كتاب سير أعلام النبلاء: لشمس الدين الذهبي المتوفي 738هـ/ 1341م، يعد من أكبر المصادر التي تخص التراجم والطبقات، اعتمدت على الاجزاء 20-21، في ترجمة بعض الشخصيات المهمة في فترة الدراسة.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لابن خلكان المتوفي سنة 981هـ/ 1283م، هو علامة في الأدب والفكر والتاريخ، وتولى القضاء، وكان مضمونه يحتوي على ترجمة بعض الأعلام والشخصيات البارزة، حيث كان مولعا بسير الأعلام ومشاهير عصره، وهذا ما دفعه لتحرير هذا الكتاب.

## ج. الرحلات الجغرافية

- كتاب معجم البلدان: لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي المتوفي سنة 622هـ/1225م، وسمي بالحموي نسبة لمولاه التاجر عسكر بن ابراهيم الحموي، وهو من ثقافت المؤرخين الجغرافيين، فهو يعرف لنا أسماء البلدان أو المدن أو الأقاليم الموجودة في المشرق الإسلامي، وخاصة بلاد الشام، واعتمدت على جزئيه الثالث والرابع للتعريف بهذه المدن خاصة (المجهولة) غير المعروف منها.

- ابن جبیر: وكتابه الرحلة، وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبیر الكناني المتوفي سنة 612هـ/1217م، وهو رحالة وكاتب وشاعر أندلسي عربي اعتمدت على كتابه رحلة في إعطاء صورة واضحة على مدن العالم الإسلامي التي شهدها بنفسه وكتب عنها.

## د. المراجع العربية

- محمد سهيل طقوش: والذي كان سندا في رفع اللبس وكشف الستار عن المعاملات الأيوبية، وخاصة خلال فترة حكم صلاح الدين، وقد اعتمدت على ثلاثة من مؤلفاته: الأيوبيين والمماليك في مصر وبلاد الشام والجزيرة، وأيضا كتابه تاريخ الحروب الصليبية، وكتاب تاريخ سلاجقة الروم.

- سعيد عبد الفتاح عاشور: مؤرخا للحروب الصليبية غني عن التعريف واطلعت على اثنين من كتبه: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، والثاني الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1965م.

- قاسم عبده قاسم: وكتابه الأيوبيين والمماليك التاريخ السياسي العسكري، أيضا كتاب في تاريخ الأيوبيين والمماليك.

## هـ. المصادر والمراجع الأجنبية المعربة:

- يعقوب القيتري وكتابه تاريخ بيت المقدس، ترجم هذه النسخة سعيد البيشاوي.

- ويليام الصوري: اعتمدت على كتابه الحروب الصليبية الجزء 4.

- ستيفن رنسيومان: اعتمدت على كتابه تاريخ الحروب الصليبية بجزئيه الثاني والثالث، ترجم الجزء 2: نور الدين خليل، أما الجزء 3 ترجمه السيد الباز العريبي.

# فصل تمهیدی

## فصل تمهيدي

## لمحة عن قيام الدولة الأيوبية

## المبحث الأول: نسب الأيوبيون

يرجع نسب بني أيوب إلى أيوب بن شادي بن مروان ويعد نسبهم محل اختلاف، فلم تتفق الروايات التاريخية على نسب محدد لهم، فذهبت بعض الروايات إلى أنهم من الاكراد الروادية، وهم بطن من بطون الهذبانبة، أكبر القبائل الكردية، وهم من أشرف الاكراد<sup>1</sup>، والراجح أنهم من بلدة تسمى بلدة دوين<sup>2</sup>، فيما أنكر جماعة منهم نسب بني أيوب إلى الاكراد وادعوا أنهم عرب نزلوا عند الاكراد وتزوجوا منهم<sup>3</sup>، وادعى بعضهم النسب إلى بني أمية<sup>4</sup>.

## المبحث الثاني: بداية حكمهم

كانت اللبنة الأولى لبداية حكمهم، أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وأخاه أسد الدين شيركوه رحلوا إلى العراق، وخدموا مجاهد الدين بهروز، الذي كانت له مكانة مرموقة لدى السلطان السلجوقي فولاه حكم بغداد<sup>5</sup>، ونظرا لعامل الصداقة بينهما اسند اليه حراسه قلعه تكريت<sup>6</sup> 'نجم الدين أيوب'، ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بينهما، وذلك لأن نجم الدين ساعد الأتابك زنكي الذي انهزم على يد الخليفة المسترشد سنة 526 هـ / 1311م، فسهل له طريق العودة إلى الموصل بعد محاولة هذا الاخير الخروج عن السلطان السلجوقي<sup>7</sup>.

كانت تلك الحادثة سببا في نشوء العلاقات الودية بين الطرفين تعددت الروايات بعد ذلك حول مغادرة نجم الدين وأخيه من تكريت حيث ان العلاقات الودية بين بهروز والطرف الآخر سرعان ما انقلبت إلى عدا، فوصلوا إلى الموصل سنة 532 هـ / 1138م فأحسن عماد الدين زنكي وفادتهما وأسند حكم بعلبك إلى نجم الدين أيوب<sup>8</sup>، وكانت ليلة هجرتهما نحو الموصل ليلة ميلاد صلاح الدين<sup>9</sup>.

<sup>1</sup> ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، 2012، ج9، ص 342.

<sup>2</sup> دوين: بلدة من نواحي أزان في آخر حدود أذربيجان، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، 1977م، ج2، ص 491.

<sup>3</sup> ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح: جمال الدين الشيال، ج1، د ت، ص 4.

<sup>4</sup> المرتضى الزبيدي، ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تح: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب، ط2، لبنان، 1983م، ص 36.

<sup>5</sup> ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، 1936م، ج6، ص 4.

<sup>6</sup> تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب... أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، تح: فريد عبد العزيز

المجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج2، ص 45.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 4.

<sup>8</sup> ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج6، ص4.

<sup>9</sup> المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997، ج1، ص 149.

قتل بعدها عماد الدين زنكي على قلعة جبل سنة 541هـ/1146م، وأرسل محي الدين وأتابكة معين الدين إلى نجم الدين ليسلم إليهما بعلبك على أن يعطوه إقطاعاً جليلاً بدمشق، وأكمل ابن واصل كلامه بأن سبب تسليم نجم الدين حكم بعلبك بأنه راسل الأمير سيف الدين غازي<sup>1</sup> بن عماد الدين زنكي ليسلم إليه بعلبك ويرسل إليه من يحفظها، فأبطلت عليه بسبب انشغالاته، وخاف نجم الدين أن تؤخذ منه عنوة، فسلمها إلى صاحب دمشق بسبب ذلك<sup>2</sup>، واتصل أسد الدين شيركوه بن شاذي بخدمة نور الدين محمود، وصار حتى أخفى أتباعه، فاشتهر بشجاعته وإقدامه على الحرب، فزاده إقطاعاً فصارت له حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره<sup>3</sup>.

### المبحث الثالث: الأوضاع الداخلية في مصر والحملات النورية.

تميزت الأوضاع العامة في مصر بالتدهور، وكان الضعف ينخر الدولة من مختلف الجهات، فأصبحت لقمة سهلة ومحل أطماع الدول المجاورة لها، وكان الخطر الصليبي على علم بما يحدث في مصر، فاستغل الملك الصليبي بلدوين الثالث هذه الحالة، وهدد بغزو الديار المصرية وبقي على تهديده إلى بعد أن وعده الوزير ابن رزيك<sup>4</sup> باسم الخليفة العاضد الفاطمي بجزية سنوية مقدارها 160 ألف دينار، لكن الموت كان أقرب من بلدوين فتوفي سنة 557هـ/1162م وتولى حكم مملكة بيت المقدس أخوه أماريك الأول 'أموري' أو 'عموري'، توقفت مصر عن دفع الجزية بعد وفاه هذا الأخير بالدين، وسلك هذا الأخير طريق أخيه بتوجيه الحملات نحو الجنوب بعد انحلال الخلافة الفاطمية نظراً للتحكم الوزراء في عزل وتعيين الخلفاء<sup>5</sup>.

وإزداد الأمر سوءاً لمقتل طلائع ابن رزيك وابنه ليحل محله شاوور في الوزارة لكن حاجه ضرغام ثار عليه ودبر مؤامرة وعزله من منصبه وحل محله وهرب شاوور من القاهرة استغل عموري الفرصة ووصل إلى مصب دمياط سنة 558هـ/

<sup>1</sup> الملك سيف الدين غازي بن زنكي، تملك الموصل بعد أبيه، واعتقل ألب أرسلان السلجوقي، وكان عاقلاً حازماً، شجاعاً جواداً، محباً في أهل الخير، لم تطل مدته، وعاش أربعين سنة، وكان أحسن الملوك شكلاً، وكان له مئة رأس كل يوم لسماطه وهو أول من ركب بالسناجق في الإقامة، وألزم الأمراء أن يركبوا بالسيف والدبوس... توفي سنة 544هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، نج: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1985م، ج20، ص192.

<sup>2</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص8، 9.

<sup>3</sup> ابن شامة، الروضتين، نج: إبراهيم الزريق، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1997م، ج1، ص405.

<sup>4</sup> وزير مصر، الملك الصالح أبو الغارات، طلائع بن رزيك الأرمني المصري الراضي، واقف جامع الصالح الذي بالشارع، وولي نواحي الصعيد، وكان أديباً وعالماً، شاعراً سمحاً جواداً ممدحاً شجاعاً سائساً، وله ديوان صغير. انظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج20، ص398.

<sup>5</sup> قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي، الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ص23.



1163م بحجة عدم دفع الجزية<sup>1</sup>، ففاضت السدود وغرق النيل في المياه لكن ضرغام تصدى له مما جعل عموري يتراجع عن حملته.

يذكر ابن واصل<sup>2</sup> في هذا الصدد: "ولما كانت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وصل أمير الجيوش أبو شجاع شاور ابن مجير السعدي إلى دمشق مستنصرًا بنور الدين علي ضرغام بن شوار الملقب بالمنصور"، مما يدل على أن شاور كان مستعدًا للتعاون مع شخص لديه القوة تستطيع الثأر له من ضرغام، فاشترط له أن يسير معه بجيشه مقابل منحه حصّة من البلاد، أو أن يكون تحت إمرته، فكان نور الدين متردداً، فمن جهة يريد أن يقوي نفوذه ويوسع أملاكه، ومن جهة أخرى كان متخوفاً على العساكر من خطر الطريق بسبب وجود العنف الصليبي وتوسطه بينه وبين الديار المصرية.

قرر نور الدين المضي قدماً نحو مصر، ومساعدته شاور وأمر أسد الدين بالتجهيز للمسير معه، فتجهز وسار مع شاور وصلاح الدين سنة 559هـ و1164م<sup>3</sup>، لكن ضرغام استنجد بالصليبيين وتعاهد لعموري الأول إذا ساعده أن تصبح مصر تابعه له، ولكن بفضل شيركوه وخبرته العسكرية جعله يسبق الصليبيين ونجح في الوصول إلى القاهرة، وانتصر على جيش ضرغام وتخلّى عنه جميع الأعوان، فقتل أثناء محاولة الهروب وتولى شاور الوزارة<sup>4</sup>.

يقول أبو شامة<sup>5</sup>: فهرب المنازع لشاور في الوزارة، وقتل وطُيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه.

وأضاف ابن الوردي<sup>6</sup> بقوله: ووثب صلاح الدين ومن معهم على شاور وألقوه أرضاً وأمسكوه في سابع ربيع الآخر فهرب أصحابه... فقتله شيركوه وأرسل برأسه إلى العاضد، ثم دخل القصر فخلع عنه العاضد الوزارة ولقبه الملك المنصور بأمر الجيوش.

تنكر شاور لشيركوه وأخلف وعده، ومنعه من دخول القاهرة وطلب منه العودة إلى بلاد الشام، فاحتل شيركوه بيلبليس وعسكر فيها جيشه، وأرسل إليه يطلب منه شيركوه ما اتفقوا عليه لكنه لم يجيبه وأرسل أسد الدين نوابه إلى مدينة بيلبليس، فتسلموها، وفي نفس الوقت اتجه شاور لطلب المساعدة لكن هذه المرة استعان بالفرننج، وخوفهم من نور الدين وقد تملكهم الرعب وخافوا خوفاً شديداً فقررروا مساعدته شاور<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> Runciman, A-history of the Crusades. Vol 2, page 367.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ج1، ص 171 172.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج1، ص 407.

<sup>4</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م، ص 12.

<sup>5</sup> المصدر السابق، ج1، ص 407.

<sup>6</sup> تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج2، ص 73 74.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص 174، 176.

يذكر ابن الأثير<sup>1</sup>: أن الجيوش الإسلامية كانت قليلة وقدرت بألفي فارس ضد العساكر المصرية وفرنج الساحل، وقد استطاعوا هزيمتهم في معركة البابين، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة أهلها وناب عنه صلاح الدين فيما عاد هو إلى الصعيد سنة 156 هـ / 1166 م.

كما أرسل عموري كذلك بطلب إلى الإمبراطور البيزنطي وعرض عليه مساعدته في حمله مزدوجة على مصر، وسارع عموري في حملته الثالثة سنة 564 هـ / 1168 م، واستولى على القاهرة، ولكن شاور قام بحرق القسطنطين وهدد بحرق القاهرة أيضا واتفق مع شاور على أن يدفع له مبلغ مائة ألف دينار<sup>2</sup>.

لم يجد عموري هذه المرة حليفا في مصر، فانسحب عائدا إلى فلسطين 564 هـ / 1169 م، أما شاور<sup>3</sup> فقد طلب المساعدة مره أخرى من الصليبيين، ودبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمراهه وقتلهم جميعا، وكان هذا الأخير قد تعاهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه، وأخذ يماطل لكسب الوقت انتظارا لوصول الصليبيين لنجدته، وبعدها اجتمع أعيان مصر على قتل شاور فقتل هو وولده الكامل في سنة 564 هـ / 1169 م، ولكن الموت غدر بشيركوه لم يلبث أن توفي بعد شهرين جمادى الآخر 564 هـ / 1169 م، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين<sup>4</sup>.

### المبحث الرابع: ظهور صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث:

تولى الوزارة على مصر خلفا لعمه شيركوه من طرف الخليفة العاضد، الذي خلع عليه ولقبه بالملك الناصر، أما عن كيفية ولايته يحدثنا ابن الأثير<sup>5</sup> أن جماعه من الأمراء النورية أرادوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده، وهم عين الدولة الباروقي، وقطب الدين، نبال، وسيف الدين المشطوب الهكاري<sup>6</sup>، وخال صلاح الدين شهاب الدين محمد الحارمي، وسانده الهكاري، واستطاع ان يفتح معه المشطوب والحارمي وغيرهم، الا البارقي فاعرض قائلا: أنا لا احدم يوسف، وعاد الى نور الدين بالشام.

<sup>1</sup> الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، مج 10، دار الكتب العلمية، ط4، بيروت، 2003م، ص 4، 5.

<sup>2</sup> قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 27.

<sup>3</sup> شاور: وزير الديار المصرية، الملك أبو شجاع، شاور بن مجير السعدي الهوازني، كان الصالح بن رزيق قد ولّاه الصعيد، وكان شهما فارسا بائسا، ولما قتل الصالح، تار شاور، وقتل ابنه العادل، ولما ساء وضعه استنجد بشيركوه، فساعده ولكنه استعان بالفرنج، فقتله جرديك النوري في ربيع الآخر سنة أربع وستين، وقيل، بل قتله صلاح الدين لا جرديك. انظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج20، ص514.

<sup>4</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 18.

<sup>5</sup> الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ص 17.

<sup>6</sup> المشطوب: هو سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب القلاع الهكارية، المعروف بالمشطوب، والد عماد الدين أحمد ابن المشطوب. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج7، ص153.

إذا فمنهم من أثبت ولائه له، ومنهم من عاد جراً توليه الخلافة إلى الشام، وقد عرف العاضد بشجاعته وإقدامه وسداد رأيه متسارع إلى تقليده الوزارة<sup>1</sup>.

لقد كانت الوزارة بالنسبة لصلاح الدين في خدمة الخليفة العاضد بمثابة فترة انتقالية في حياة هذا البطل لتألق نجمه، ولكن أحداث كثيرة مرت حالت دون أن يثبت قوته واستحقاقه لهذا المنصب، وقد تأكد أنه من أجل إكمال ما بدأه عمه أسد الدين شيركوه ومحاربة الخطر الخارجي المتمثل في الخطر الصليبي، عليه أولاً البدء بحل المشاكل الداخلية من مؤامرات وفتن وغيرها، ومن بين أخطر المؤامرات التي تعرض لها الجيش الفاطمي المكون من عدد كبير من الفرسان البيض معظمهم من الأرمن الذين خدموا الجيش الفاطمي منذ أيام الوزير بدر الجمالي، فبدأ صلاح بإنشاء جيشه الخاص، وقام بإخراج طوائف السودان والأرمن من القاهرة، ومن ثم اندلعت حركته التمرد بقيادة مؤتمن الخلافة<sup>2</sup>، وبنى صلاح الدين سور دائر بالقاهرة ومصر وكلف بهاء الدين قواقوش بالديار المصرية<sup>3</sup>.

سنة 565 هـ/ 1169 م سعى قائد الجند السودانيين إلى الوقوف دون استمرار حكم صلاح الدين، حيث أنه في حال استمراره قد يؤدي إلى القضاء على الخلافة الفاطمية، ولعله كان يريد خلافه الوزير شاور ولكن لم يستطع، مما أدى به إلى حياكة المؤامرات ضد صلاح الدين، وحاول الاتصال مع عموري ملك بيت المقدس، غير أن صلاح الدين اكتشف مؤامراته حيث ارتاب في أحد اتباعه في شكل خفين الذين اتخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول وبهذا نجح في القبض عليه<sup>4</sup>.

تتبع صلاح الدين كل ما له علاقة بحركة عمارة اليميني، وكل مؤيد للحكم الفاطمي، وإصدار أوامر بترحيل كافة الأجناد وحاشية القصر والسودانيين إلى أقصى بلاد الصعيد، وقبض على كثير من السودانيين فكروا بالنار في وجوههم وصدورهم<sup>5</sup>.

أما عموري ملك بيت المقدس فلم يعلم بنبأ القبض على المتآمرين وفشل خطته الموضوعة لغزو مصر، وتوفي سنة 569 هـ/ 1174 م، وقد حاول افرنج صقلية اقتحام الاسكندرية، لكن المسلمين تصدوا لهم وأحرقوا بعضاً من سفنهم،

<sup>1</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص115. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1977، مج6، ص145. المقرئ، اعطاء الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء، تح: محمد علي محمد أحمد، مؤسسة الأهرام، مصر، 1997/ ص309. سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، دار القومية للنشر والطباعة، مصر، 1965، ص67.

<sup>2</sup> قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص28، 29.

<sup>3</sup> الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، مصر، 1322هـ، ص97. الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، مركز ودور للمخطوطات، القاهرة، 1972م، ج7، ص41.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، دار النفائس، ط2، بيروت، 2008م، ص21.

<sup>5</sup> وفاء محمد علي، قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1407هـ، ص70.

وعند وصول صلاح الدين سارع لمهاجمة النورمان، واخترق بعض سفنهم واختار الباقون فكرة الانسحاب بعد تكبيدهم خسائر فادحة<sup>1</sup>.

عندما استقر صلاح الدين الأيوبي في منصب الوزارة في مصر، ساعة إلى جملة من الاصلاحات، والتصدي لجميع المشكلات بحكم منصبه الجديد، فهو كان موزع الولاء، فهو قائد الجيش نور الدين صاحب الشام، وهو بهذا الوضع وزير لخليفة شيعي قائد لأمير سني، وقد كان بهذا ولاؤه مضطرب وغير مؤكد لنور الدين<sup>2</sup>، لذلك سعى للقضاء على المذهب الشيعي، بداية تعيين قضاة السنين من المذهب الشافعي، فقام بعزل قضاة مصر من الشيعة سنة 566 هـ/ 1170 م، وولى قاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درياس الهذباني الشافعي، وألغى مجالس الدعاة الفاطميين، وعمل على ازالة اصول المذهب الشيعي، فأنشأ المدارس منها: مدرسه الشافعية، والمالكية، وقام بإلغاء المكوس والضرائب الغير المشروعة للتخفيف عن الناس، وبهذا استعاد المذهب السني فيما أخذ المذهب الإسماعيلي في التراجع تدريجياً، فقد كان أنصاره قليلون<sup>3</sup>.

مزج صلاح الدين العمل السياسي بالفعل العسكري والإجراء الاقتصادي، فتمكن بفضل حنكته من تنظيم مختلف شؤون دولته، فقام بتنظيم حركة التجارة، وقام بإصلاح أسوار مصر، ودير مؤامرة للقبض على أمراء الدولة الفاطمية، جعل محلهم الامراء الشاميون.

ألح نور الدين محمود على صلاح الدين من أجل إعلان نهاية الخلافة، لكنه تمهل في ذلك، وبعد فترة من التردد أعاد الخطبة للخليفة العباسي في أول جمعة من محرم سنة 567 هـ/ 1171 م<sup>4</sup>، انتهى دور الدولة الفاطمية السياسي في التاريخ، وتهيأ الجو لقيام الدولة الأيوبية<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> عرب دكتور، تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم، منتدى سور الأزيكية، بيروت، 2010م، ص150. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط2، تونس، 1982، ص81.

<sup>2</sup> Bernard Lewis, The Arabs in history, Hutchinson's university library, London, 1954, p152.

<sup>3</sup> وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص57.

<sup>4</sup> القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: عبد القادر زكار، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983م، ج4، ص145. قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2010م، ص37، 36.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص38.

## المبحث الرابع: حوصلة حول الفصل التمهيدي:

يرجع نسب بني أيوب إلى أيوب بن شادي بن مروان، ورغم الجدل الذي أثار حول أصلهم، إلا أن الراجح أنهم من بلدة تسمى دوين، وهم من الأكراد الروادية ومن بطن من بطون الهذبانبة.

ترجعوا الإمارات الأولى لبداية حكم بني أيوب: أن نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه رحلوا إلى العراق، وخدموا مجاهد الدين بهروز، وقد كانت له مكانة مرموقة عند السلطان سلجوقي، فولاه حكم بغداد، وولى نجم الدين أيوب حراسة قلعة تكريت.

لم تدوم هذه العلاقات الحسنة طويلاً، فسرعان ما ساءت ذلك لأن نجم الدين قام بمساعدة الأتابك زنكي، وسهل له طريق العودة إلى الموصل بعد انهزامه على يد الخليفة المسترشد ومحاولة خروجه على السلطان السلجوقي.

بينما ساءت العلاقات بين نجم الدين أيوب ومجاهد الدين بهروز، توطدت بينه وبين الأتابك زنكي لمساعدته له. ازدادت العلاقات سوءاً، فطرد نجم الدين وأخيه شيركوه من تكريت، مما دفعهما إلى السير نحو الموصل سنة 532 هـ/ 1138م. فأحسن الأتابك عماد الدين زنكي وفادتهما وأسند حكم بعلبك لنجم الدين أيوب.

قيل أنّ ليلة مغادرة نجم الدين أيوب وعائلته، هي ليلة ميلاد ابنه يوسف صلاح الدين الأيوبي.

توفي بعد ذلك عماد الدين زنكي سنة 541 هـ/ 1146م، وسلم نجم الدين بعلبك إلى ابنه نور الدين محمود، وعند دخول شيركوه بن شادي في خدمة نور الدين، ونظراً لشجاعته وإقدامه على الحروب، أعجب به نور الدين وصار من أخص أتباعه، وأقطعته حمص وحلب والرحبة وجعله مقدم عسكره.

كانت الأحداث والظروف استثنائية التي شهدتها مصر، وبغض النظر عن الظروف الاجتماعية التي كانت تنخر الدولة، أوجدت أزمة الوزراء الذين أصبحوا يتحكمون في أمور الدولة، وصاروا بمثابة الحكام، فكان الحاكم لا يمتلك أي شرعية، فهم يتحكمون بعزل، وتعيين من يشاؤون، فصارت بلاد مصر التي كانت محل أطماع الصليبيين لقمة سائغة نظراً للمشاكل التي مست جميع النواحي، ومما زاد أطماعهم للقيام بالهجوم عليها. ليس هذا فحسب بل أدى هذا التنافس إلى ظهور خونة اتحدوا مع العدو الصليبي فقط من أجل مصالحهم الشخصية.

ومما زاد الطين بلة الحملات التي وجهها الملك الصليبي بلدوين الثالث، وأكملها أخوه عموري الأول الذي خلفه بعد موته، وموت الوزير طلائع بن رازيك وابنه، ليحل محله شاوور في الوزارة، وصار عليه ضرغام الذي دبر مؤامرة وعزله عن منصبه، توجه هذا الأخير لطلب المساعدة من شيركوه، لكنه تمرد واستعان بالصليبيين، مما أوجب قتله، توفي بعده شيركوه بشهرين فقط سنة 564 هـ/ 1169م.

تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة على مصر، خلفاً لعمه شيركوه من طرف الخليفة العاضد الذي لقبه بالملك الناصر، أخذ الملك الناصر على عاتقه مهمه الإصلاح، وعمل على محاربة المذهب الشيعي وإزالة أصوله، واستبداله بالمذهب

السني عن طريق بناء الكتاب والمدارس التي تلقن أصول المذهب السني، وبهذا يكون قد أطاح بالخلافة الفاطمية في مصر سنة 567هـ / 1171م وخطب للخليفة العباسي، وبهذا يكون قد خطى أول خطوة لبناء دولته.

# الفصل الأول

## الفصل الأول صلاح الدين والزنكيون.

المبحث الأول: نهاية الحكم الفاطمي وأثره على العلاقات بين الطرفين.

(نور الدين محمود وصلاح الدين)

تميزت العلاقة بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي عموماً بالود، فقد كانت حسنة إجمالاً، ولكنها سرعان ما تحولت تدريجياً إلى تباعد وتوتر، وقد ذكرت كتب التاريخ أن هناك وحشة حدثت بينهما<sup>1</sup>، وأشار ابن الأثير<sup>2</sup>: أن سبب الوحشة يعود إلى: أن صلاح الدين يوسف سار من مصر إلى بلاد الفرنج، ونزل حصن الشوبك<sup>3</sup> سنة 567هـ/1172م، وبينه وبين الكرك يوم، فطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فلما سمع نور الدين بذلك ذهب إلى بلاد الفرنج هو الآخر، من جهة أخرى رحل صلاح الدين عن الشوبك عائداً إلى مصر، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال الأوضاع في مصر بأن هناك من الشيعة من يريد الانقلاب عليه، وطول علي الاعتذار فلم يقبله نور الدين منه وعزم على قصده مصر وإخراجه منها.

وأضاف أيضاً ابن الأثير حول حيثيات هذا الخلاف أن سبب اعتذاره عن الذهاب مع نور الدين لمحاربة الفرنج أن أصحاب صلاح الدين وخواصه من الاجتماع بنور الدين، فعزم نور الدين على إخراجه من مصر، فلما سمع صلاح الدين الخبر استشاره أهله منهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي وبقية أمراءه، منعه أبوه من محاربة نور الدين، فلما رأى هذا الأخير تراجع عن قراره<sup>4</sup>.

ويبدو أن الخلاف بدأ قبل هذه الحادثة أي منذ تولي صلاح الدين الوزارة لدى الخليفة العاضد الفاطمي قبل أن يأتيه إذن بهذا القبول من طرف نور الدين، اعتقد أن صلاح الدين يريد الانفراد بحكم مصر<sup>5</sup>، وقد استطاع نور الدين محمود سنة 567هـ/1170م أن يضم كل من الموصل وأعمال العراق تحت حكمه، وكان كل من الرجلين يرى أن المنطقة التي

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنجة في المشرق)، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2011م، ص 421.  
<sup>2</sup> الكامل في التاريخ، ج 10، ص 35، 36. أسامة حسن، الناصر صلاح الدين، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط 1، الهرم، 1997م، ص 21.

<sup>3</sup> حصن الشوبك: حصن شديد لحصانة بناه بلدوين الأول Baldwin صاحب بيت المقدس سنة 509هـ/115م جنوب البحر الميت، في منطقة عالية ليسهل عليه مراقبة القوافل في طريق الشام ومصر وهو قرب من حصن الكرك الفرنجي. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج 3، ص 370. Stevenson, The Crusaders in The East, Cambridge, 1907, p5, 6

<sup>4</sup> التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تج: عبد القادر أحمد بطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963م، ص 158. أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 229.

<sup>5</sup> عرب دكتور، المرجع السابق، ص 144.



يُحكّمها هي المركز الحقيقي للإسلام<sup>1</sup>، وأخذ هذا الصراع يتصاعد ويظهر بشكل واضح مبينا اختلاف وجهات النظر السياسية بين الرجلين، عندما أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يطلب منه القدوم إلى حصن الشوبك والكرك، فقد ذهب ابن الأثير برواية محاولا إثبات خيانة صلاح الدين، ولكن أبا شامة<sup>2</sup> يقول أن صلاح الدين خرج فعلا لكن أمرا ما جعله يعود إلى القاهرة وأنه يخاف من البعد عنها فلم يقبل نور الدين عذره.

قام صلاح الدين بإرسال بعض الهدايا والأموال التي حصل عليها بعد وضع يده على قصور الفاطميين، لندع ابن واصل<sup>3</sup> يروي لنا ما كتبه الملك الناصر إلى نور الدين مع الهدايا قائلا وكتب إليه بالإنشاء الفاضل: (سبب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد أركانه، ونصر أنصاره وأعان أعوانه، علم الملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم، ويقل أسلحتهم، ويقطع حوارهم<sup>4</sup>...).

يبدو أن الهدية التي أرسلها صلاح الدين لم تكن كافية حيث أنه عندما استلم الهدية قال: (ما كان بنا حاجة إلى هذا المال، وهو يعلم أن ما انفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به مقدار<sup>5</sup>).

وهذا ما يؤكد لنا عزم نور الدين لسير نحو مصر من أجل القضاء على حكم صلاح الدين، الذي أصبح بالنسبة له يشكل خطرا عليه وعلى أملاكه، ويبدو لنا مما تقدم أن الخلاف بين الرجلين منبعه سياسي بحت، ولا يخل للود بقضيه وأنه مجرد اختلاف وجهات نظر.

اعتبر نور الدين بلاد الشام بمثابة الأرض الرئيسية للمعركة ضد الصليبيين، وتطلع إلى مصر كمصدر للواردات تسد به نفقات الجهاد، ومصدر للطاقة البشرية الاضافية، في حين أن صلاح الدين كان على علم بأهمية مصر وتنافس على ثروتها والاستيلاء عليها من قبل الحكام سواء في الداخل او الخارج، وعليه فقد كان صلاح الدين مقتنعا بأن النقطة الرئيسية في ذلك الوقت هي مصر، وبهذا فهو كان أكثر وعي من نور الدين للأخطار الناجمة عن إهمال مصر، وقد كانت مصر والدفاع عنها واحدا من اهتمامات صلاح الدين حتى آخر حياته<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص37.

<sup>2</sup> الروضتين، المصدر السابق، ج2، ص227.

<sup>3</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص225.

<sup>4</sup> قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، المصدر السابق، ص36.

<sup>5</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج1، ص227.

<sup>6</sup> السير هاملتون. آ.ر.جب، صلاح الدين الأيوبي "دراسات في التاريخ الإسلامي"، تح: يوسف ايش، بيروت، 1995، ص121،

وفي عام 568 هـ 1173 م، طلب نور الدين محمود من صلاح الدين بغزو أراضي مملكة بيت المقدس في الكرك، في تلك الأثناء زحف نور الدين بجيشه من دمشق متجهاً إلى الكرك، فتجددت مخاوف صلاح الدين فانسحب بجيشه وعاد إلى مصر، بحجة أن والده مريضاً، إذ يخاف عليه الموت، سيخرج من قبضته<sup>1</sup>، وبالفعل كانت حجة صلاح الدين في محلها هذه المرة، فقد اشتد المرض على أبيه، فخشي أن يتوفى أبوه قبل وصوله، وجد صلاح الدين أباه قد سقط عن الفرس، وبقي أياماً ومات، قبل وصوله في 27 ذي الحجة 568 هـ 1173 م<sup>2</sup>.

يذهب ابن واصل إلى أن صلاح الدين كان هو وأهله منذ أن حكموا مصر خائفين من نور الدين أن يدخل مصر فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكة يقصدونها، ويملكونها في حال ما إذا أخرجهم نور الدين منها، فسير صلاح الدين أخاه الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين توران شاه بن أيوب إلى بلاد اليمن، أشار إليها وأقاموا بها، وبعدها إلى النوبة، ولم تعجبه فاستأذن نور الدين بالسير إلى اليمن فأذن له في ذلك<sup>3</sup>.

مما يؤكد لنا تخوف صلاح الدين الشديد وحرصه على إيجاد حلول واستخدام حنكته من أجل ضمان وامتلاك أكبر عدد من البلاد في حالة ما أخرج هو وأهله فيكون له مكان يأوي إليه، وهذا دليل على وصول التوتر بين الطرفين إلى ذروته، ويكشف عن غضب نور الدين الشديد، حيث حسم أمره وعزم هذه المرة بصفه نهائية على محاربه وإخراجه من الديار المصرية.

تمكن توران شاه من الاستيلاء على اليمن وكذلك عدن سنة 569 هجري 1174 ميلادي واستولى على أموال عظيمه لعبد النبي صاحب اليمن، استقر حكم صلاح الدين<sup>4</sup>.

أما نور الدين محمود، ورغم كل ما انتابه حول صلاح الدين بأنه يريد الانفراد بحكم مصر، وأن ما فعله يعد تمرداً عليه، إلا أنه لم يستطع أن يتدخل جدياً في شؤونه، ولذلك اضطر إلى تجنب العداء بينهما، ولجأ إلى طرق أو إجراءات أخرى من شأنها إضعاف موقعه ومنها: أنه استدعى الأمراء النوريين، الذين رافقوا الحملة النورية إلى مصر مما أدى إلى نقص القادة لدى صلاح الدين، وانتزع نور الدين محمود حمص والرحبة من ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه وفرق

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 41.

<sup>2</sup> ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1654، ج 2، ص 355.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ج 1، ص 237، 238. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تح: محمد زينهم عرب، يحي سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، ج 3، ص 70.

<sup>4</sup> أبو الفداء، المصدر السابق، ص 70.

أعماله وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه<sup>1</sup>، ورفض الاعتراف به كوزير في مصر، وظل يدعو في المراسلات الرسمية باسم الأمير الإسفهلار، وكتب هذه العلامة تعظيماً عن أن يكتب اسمه.<sup>2</sup>

## المبحث الثاني: صلاح الدين والصلاح إسماعيل:

### مطلب 1: الأوضاع السياسية في بلاد الشام بعد وفاة نور الدين محمود:

كان لوفاة نور الدين محمود<sup>3</sup>، أثر كبير في إبراز شخصية صلاح الدين، وتحديد العلاقة بينه وبين القوى الإسلامية في منطقة الشام والجزيرة، فقد كان يركز دعائم حكمه في مصر، وعند وفاة نور الدين بدأ الاستعداد للدخول في الفترة السورية الثانية التي امتدت من سنة 570هـ حتى سنة 582هـ / 1174م \_ 1186م<sup>4</sup>، وقد أثارت وفاة نور الدين مشكلة تقسيم دولته بين ورثته، مما هدد صفو الوحدة الإسلامية، وكادت أن ترجعه إلى حالة التمزق والانقسام التي كانوا عليها من قبل أن يبدأ عماد الدين زنكي جهوده لوضع قاعدة صلبة لتوحيد الجبهة الإسلامية والتصدي للصليبيين<sup>5</sup>.

لم يكن بين رجال الأسرة الزنكية من يصلح أن يكون خلفاً لنور الدين محمود الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشر من عمره، اسمه إسماعيل، وابنة صغيرة، وزوجته هي عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين آنر<sup>6</sup>.

اضطرب الأمن في بلاد الشام نتيجة الصراعات حول الوصاية على الملك إلى صلاح وكثرت الحروب والفتن بين هؤلاء القواد<sup>7</sup>، فأخرجوه بعد وفاة أبيه مجزوز الذوائب، مشقوق الجيب حاسراً حافياً، وهو يبدي الحزن والوعويل<sup>8</sup> على حد تعبير ابن واصل، وأجلسوه على العرش في القلعة، وحلفوا له، وعينوا شمس الدين بن عبد الملك المعروف بابن المقدم قائداً للجيش وأتابكاً له، وكتبوا إلى ولاة الأطراف بإقامه الخطبة باسمه، وخاصة صلاح الدين، موضحين لهم بأن مهمته تنحصر

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 423.

<sup>2</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص 344.

<sup>3</sup> الأرحح أنه توفي في 11 شوال سنة 569هـ / 15 ماي سنة 1174م. انظر: البنداري، سنا البرق الشامي، تح: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، 1979م، ص 32. أبو شامة، الروضتين، ج 2، المرجع السابق، ص 313.

<sup>4</sup> قسم لين بول مسيرة صلاح الدين منذ توليه السلطة إلى ثلاث فترات متميزة سماها المصرية والسورية والفلسطينية، أما السورية بدأت بوفاة نور الدين، والتي سعى من خلالها إلى توسيع نفوذه. Stanly Lane- of Egypt, vol 2, Landon, 1901, p 194  
poole, History

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 51.

<sup>6</sup> نوري دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، (570هـ \_ 589هـ / 1174م \_ 1193م)،

رسالة ماجستير بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الموصل، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976م، ص 119. ابن الأثير، الباهر، ص 164.

<sup>7</sup> عرب دككور، المرجع السابق، ص 151.

<sup>8</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 1.

في قيادة العساكر ضد الصليبيين، وهاته المهمة كانت بتكليف من نور الدين، وتوقعوا معارضته، وقد صنع القاضي كمال الدين الشهرزوري للأمرء المحيطين بالصلاح إسماعيل لكنهم رفضوا التضامن معه والاستعانة به لحل الخلافات<sup>1</sup>.

وجاء هذا الرفض لأنهم خشوا أن الملك الناصر في حال ما دخل البلاد أخرجهم منها، لذلك تغاضوا عن هذا الرأي، ومن بين هؤلاء الأمرء شمس الدين بن المقدم<sup>2</sup> وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي وغيرهم، حيث قال الشهرزوري: (قد علمتم ان صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح)<sup>3</sup>.

وكان لإسماعيل ابنا عم، هما سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل وأخوه عماد الدين زنكي أمير سنجار، لكنهما لم يكونا على مستوى الأحداث، ولم يتميزوا بالحكمة، وسرعان ما نشب الصراع بينهما، حيث أنهم لم يتفقوا حتى فيما بينهم على موقف موحد يعاون فيه بعضهم بعضا ضد صلاح الدين العدو المشترك، أما صلاح الدين فقد خطب للملك الصالح إسماعيل وضرب السكة باسمه فيها وأرسل إليه متظاهرا بالود والإخلاص تعازيه الخالصة له<sup>4</sup>.

كانت سياسة صلاح الدين تقوم على مزيج بارع من الحرب والدبلوماسية، لمواجهة ورثة نور الدين والتغلب عليهم<sup>5</sup>، لذلك اختار عدم التدخل في شؤون ولي العهد الصالح إسماعيل وتمت الوصاية عليه دون أن يشارك صلاح الدين في ذلك، واكتفى في رده على ابن المقدم بأنه لا يطلب للإسلام والمسلمين إلا جمع الشمل ولا ينبغي للبيت الزنكي إلا ما يدفع الضرر ويجلب النفع ويحفظ له الأصل والفرع، وأعلن على أنه نصير للبيت الزنكي وللسلطان إسماعيل وأنه يد على من ناواه، وسيف على من عاداه<sup>6</sup>.

وكان من نتائج تلك المراسلة أن وجد صلاح الدين نفسه مضطرا إلى القنوع بمركزه في مصر انتظارا للفرصة الملائمة<sup>7</sup> ليحقق ما يسعى إليه ألا وهو توحيد صفوف الجيوش الإسلامية في جبهة واحدة ضد العدو المتربص من كل مكان، وهذا ما كشف عن حقيقة التوجه الحقيقي لصلاح الدين وهدفه السياسي بجمع صفوف المسلمين تحت راية واحدة.

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص430.

<sup>2</sup> ابن المقدم: هو محمد بن عبد الملك المقدم الأمير شمس الدين، كان من أكابر أمرء الملك العادل نور الدين ثم صلاح الدين، وله من المواقف المشهودة، وحضر جميع فتوحات صلاح الدين، مات يوم النحر بعرفة سنة 683هـ/1284م، بسبب ضربة سهم من أحد المماليك طاكشتين. انظر النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج6، ص105.

<sup>3</sup> ابن الأثير، التاريخ الباهر، المصدر السابق، ص162.

<sup>4</sup> وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص85، 87.

<sup>5</sup> Saunders, A history of medieval Islam, Taylor and francize library, 2002, p165.

<sup>6</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص320.

<sup>7</sup> علي بيومي، قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث للنشر، ط1، مصر، 1952م، ص204.

في هذه الأثناء برز صراع آخر نشب بين شمس الدين علي بن الداية في حلب، وابن المقدم في دمشق، ويعتبر هذان الاثنان من بين أقوى قادة نور الدين محمود، وكان النزاع بسبب الوصاية على الملك الصالح اسماعيل، واختلاف وجهات النظر حول كيفية قيادة الدولة، فقد أراد ابن المقدم العمل السياسي ضمن دائرة بلاد الشام تحت إمرة الأتراك من الأتابكة<sup>1</sup> الزنكيين، بينما أراد ابن الداية العمل تحت إمرة صلاح الدين، بعد ضم مصر إلى بلاد الشام والتعاون مع الأكراد الذين ينتمي إليهم حاكم مصر، والأتراك الذين هم ينتمون إلى الأمراء النوريين<sup>2</sup>.

أما صلاح الدين فقد كان هدفه أسمى وأبعد من مجرد الوصاية على خليفه نور الدين، أو الاستئثار بالحكم، فقد كان هدفه بناء الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، وتصرف حيال هذا الأمر بهدوء وروية<sup>3</sup>.

أظهر سيف الدين غازي صاحب الموصل الفسق حيث أمر بإعادة المكوس<sup>4</sup>، والسماح بشرب الخمر والتظاهر بالمنكرات، كما سارع لاحتلال منطقة الجزيرة، وكان قد خرج من الموصل لمساعدة عمه في غزواته ضد الصليبيين<sup>5</sup>، ومما زاد من حدة الانقسامات أنها لم تقتصر على ما كان هناك من أطماع سيف الدين غازي الثاني، أو ما نشأ من تنافس بين ابن الداية وابن المقدم، بل ظهر طرف جديد في النزاع وهو سعيد الدين كمشتكين الخادم، وهو أحد قادة نور الدين محمود، والذي دخل في خدمة ابن الداية واتفق معه على أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح<sup>6</sup>.

أما السلطان صلاح الدين فقد بادر للزواج بعصمة الدين خاتون بنت منير أنر أرملة نور الدين محمود<sup>7</sup>، وهو يعتبر زواجا سياسيا بامتياز.

بعد خطف كمشتكين للصالح اسماعيل، ذهب به إلى حلب ليحكم باسمه فيها، قد كتب الخليفة المستضيء العباسي تقليدا بالسلطنة لصلاح الدين على مصر والشام<sup>8</sup>، وسرعان ما انقلبت الموازين وثار كمشتكين على ابن الداية

<sup>1</sup> الأتابكة جمع أتابك وهي كلمة مركبة من لفظين تركيين "أتا" أي الأب أو المربي و"بك" أي الأمير، فيكون معنى الكلمة "مربي الأمير"، انظر: الموسوعة التاريخية، الدرر السنية، ج4، ص331.

<sup>2</sup> ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، ج2، بيروت، ط1، 1996م، ص83. محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص58.

<sup>3</sup> قاسم عبده قاسم، علي السيد علي، المرجع السابق، ص38.

<sup>4</sup> المكوس: واحدها مكس، وهي كل ما يستحصل من الأحوال لصلاح دوان السلطان أو لأصحاب الإقطاعات غير الضرائب الشرعية. أنظر: نوري دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الأيوبي، هامش رقم3، ص126.

<sup>5</sup> البنداري، المصدر السابق، ص126.

<sup>6</sup> وفاء محمد علي، المصدر السابق، ص86، 87. محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص53.

<sup>7</sup> ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج6، ص78. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: إبراهيم زبيق، دار الرسالة العلمية، ط1، بيروت، 2013، ص242. أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص431.

<sup>8</sup> عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية: (التاريخ السياسي)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص89.

وأدخله السجن مع عدد كبير من الأمراء، ومن بينهم ابن الخشاب رئيس الشيعة بحلب، وانفرد هو بأتابكية الملك الصالح إسماعيل واستبد بتدبير أموره<sup>1</sup> ناقضا بذلك اتفاقه أمراء دمشق.

وهكذا أصبحت الوصاية على الملك موضع نزاع بين الدمشقيين والحلبيين، وأمام هذه الفوضى العارمة والأوضاع المضطربة، أخذ صلاح الدين بالتفكير بضرورة تحويل جهوده لأجل تحقيق الوحدة التي طالما حلم بها، وأراد تنفيذها على أرض الواقع، حيث أنه يرى نفسه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص8-10.

<sup>2</sup> قدرى قلعجي، صلاح الدين الأيوبي "قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد"، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط1، بيروت، 1992م، ص228.

المبحث الثالث: التوسع الأيوبي باتجاه الشام:

وفي سبيل تحقيق الوحدة، كان صلاح الدين مدركا للحالة التي آلت إليها دولة نور الدين، حيث أنها انقسمت إلى ثلاث دويلات تتركز حول ثلاث مدن رئيسية وهي: الموصل، دمشق، حلب<sup>1</sup>. وهذا ما يعرض البلاد الإسلامية إلى أطماع وخطر الأعداء المتربصين في الخارج أي الصليبيين.

وكانت من بين الأسباب التي ساعدت صلاح الدين على دخول الشام أي تدخله في أمراء الملك الصالح، أن أمراء دمشق تحالفوا مع الملك عموري الأول في هذا الوقت الحرج، وأبرموا معه معاهدة، حيث أن ابن المقدم تعاهد مع الملك الصليبي عقب مهاجمته بانياس<sup>2</sup>، واستيلاء سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي على الموصل، وتقدمه لاحتلال الجزيرة الفراتية<sup>3</sup>، فأحس صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي للدولة الزنكية وقد مهد لدخوله بجملة من التدابير والاجراءات.

لما ورد الخبر إلى صلاح الدين بملك سيف الدين غازي بلاد الجزيرة، أرسل إلى الملك الصالح يعاتبه، حيث أنه لم يعلمه قصد بلاده وأخذها ليحضر في خدمته وكتب إلى الأمير كمال الدين والأمراء يقول: "لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامه، أو يثق بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربيته ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي أنعام والده بخدمة يظاها أثارها، وأجازي كلا منكم سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده"<sup>4</sup>.

واعتقد صلاح الدين أن أخ نور الدين وهو "مجد الدين" هو من سيتولى وصاية الصالح إسماعيل بعد وفاة نور الدين، فلما جرى ما جرى إستاء وعبر عن حزنه فقال: "أنا أحق برعي العهود، والسقي المحمود، فإنه إذا استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، وضاعت المناهج المتسعة، انفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام"<sup>5</sup>.

وهذا الكتاب الذي أرسله إلى ابن المقدم يدل بشكل قطعي أن صلاح الدين يسعى بكل ما لديه من سلطة ونفوذ إلى تحقيق الوحدة بين صفوف المسلمين ونبذ التفرقة والشقاق بينهم، وأنه يريد من وراء خطابه هذا الخير والصلاح للأمة الإسلامية ككل، لكن ابن المقدم كان له رأي آخر، ورد عليه يشكك ويكذب صحة أقواله، قال أبو شامة<sup>6</sup>: "فكتب ابن المقدم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: لا يقال عنك أنك طمعت في بيت من غرسك، ورباك وأسسك، وأضفى مشربك، وأضفى ملبسك، ومحاسن أخلاقك وخلالك غير فضلك وافضالك."

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص431.

<sup>2</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص322.

<sup>3</sup> نوري، دريد عبد القادر، المرجع السابق، ص125.

<sup>4</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، مج10، ص58. البنداري، المصدر السابق، ص76.

<sup>5</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص333.

<sup>6</sup> نفسه، ج2، ص333.

وعند وصوله إلى صلاح الدين تبين أنه ما يريد سوى جمع شملهم ولبيت الأتابكي إلا ما يحفظ أصله وفرعه<sup>1</sup>، وأرسل صلاح الدين أيضا إلى الخليفة العباسي يتأسف لما حل بالمملكة النورية، عدد له انتصاراته، ويطلب تقليدا لحكم مصر واليمن والمغرب والشام، فكان له ما أراد<sup>2</sup>.

بعد هذا الرد السيء، بدا على أمراء دمشق الخوف حيث أنهم وجدوا أنفسهم في موقف حرج، فقد خافوا أن يزحف عليهم كمشتكين من حلب، ويستولي على مدينتهم، كما قلقوا من زحف صلاح الدين باتجاههم، فاستدعوا سيف الدين غازي الثاني ليسلموه مدينتهم، غير أن أتابك الموصل تباطأ في الخروج ظنا منه بأنها مكيدة، واختار توطيد مكاسبه في الجزيرة، وسط الضغط من طرف سكان دمشق على ابن المقدم بضرورة دعوه صلاح الدين، فاضطر إلى دعوته إلى بلاد الشام واستدعوه ليملكوه البلاد<sup>3</sup>.

### • تقدم صلاح الدين نحو الشام

كان صلاح الدين على وشك التدخل في شؤون الشام، لكن الأسطول النورماني وصل إلى الإسكندرية مما أخره بعض الوقت، لذلك اكتفى بتلك الرسائل في الأول معلنا حقه في الوصاية على الصالح إسماعيل، وبعدها خرج صلاح الدين من مصر بعد أن استخلف أخوه الملك العادل فيها، فوصل دمشق في جمادي الآخرة 570 هـ/ نوفمبر 1741 م ولم يصطدم لحسن حظه مع الصليبيين الذين كانوا يشنون غارات على المعاقل الإسلامية في الشام<sup>4</sup>.

وقد استقبل صلاح الدين في دمشق استقبالا طيبا، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها إياه، ومما يلفت النظر حرص صلاح الدين على إعلانه في خطاباته بأنه ملوك الصالح إسماعيل، أي تبعيته وانصياعه التام لبيت الأتابكي وهذا يعتبر اجراء سياسيا، تمتع صلاح الدين بخبرة سياسية ومهارة منقطعة النظير، لكي يرجع أملاكه الضائعة منه، وإعادة لها إلى سابق عهدها وإعلاء راية الجبهة المتحدة<sup>5</sup>.

حاول صلاح الدين كسب الرأي العام الإسلامي إلى صفه وذلك بإعلانه الجهاد ضد الصليبيين، وسخطه على ما قام به الأمراء النوريون وظهر بمظهر المدافع عن مصالح الصالح إسماعيل، ويتضح لنا أنه نجح في أن يحول من مسألة خاصة تهمه إلى مسألة عامة تهم الجميع<sup>6</sup>، واستمال قلوب الدمشقيين بتوزيع الأموال والهبات<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> نوري، دريد عبد القادر، المرجع السابق، ص 86.

<sup>2</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج 2، ص 334. عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 234.

<sup>3</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 11.

<sup>4</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1972م، ص 34.

<sup>5</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، حوادث سنة 570هـ، ج 10، ص 68. سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام، المرجع السابق، ص 34.

<sup>6</sup> علي بيومي، المرجع السابق، ص 216.

<sup>7</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام، المرجع السابق، ص 35.



لم يلتقى صلاح الدين أي مقاومه عند دخوله دمشق<sup>1</sup>، فأخذها بلا طعنة ولا ضربة على حد تعبير الحنبلي، أي أنه لم يجد أية ردة فعل مما سهل عليه مهمته، فاستولى على حماة ثم حاصر حلب ثم التقى عز الدين مسعود بن مودود بن صاحب الموصل وهزمهم على قرون حماة شر هزيمه، ولم يعد المواصلة قادرين على الهجوم، استناب أخاه بدمشق سيف الإسلام، وأخيه العادل كان بمصر<sup>2</sup>.

ويصف قدري قلعجي<sup>3</sup> بخصوص دخول صلاح الدين دمشق فيقول: أقبل صلاح الدين إلى الشام مدعوا من أهلها، مؤيدا من الخليفة العباسي، قويا بجيشه وخبرته، وتقدمه شهرة واسعة باذخة واسم مقترب في الأذهان بالبأس والنبيل والمروءة. مما يدل على أن صلاح الدين أصبح في هذه الفترة معقد آمال المسلمين ومحطة انظارهم في منطقته الشام ضد الخطر الخارجي<sup>4</sup>.

وبهذا يكون صلاح الدين قد نجح في ضم دمشق، بعد قضائه على الثورات التي هددت استقرار الحال في مصر، بعد خمس أشهر من وفاة نور الدين قضاها يراقب أوضاع دمشق السياسية وينتظر الفرصة المناسبة له بالتدخل في شؤونها، حيث استقبل استقبالاً طيباً، وفتحت له أبواب المدينة، وامتنعت القلعة التي كانت بيد خادم يدعى جمال الدين ريجان<sup>5</sup>، فراسله صلاح الدين حتى استماله، وأغزر له نوله، وتملك المدينة والقلعة حيث أوضح نيته بالهجوم لدمشق بأنه جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ما له من المصالح، وتديبر ملكه فهو أحق بصيانة حقه<sup>6</sup>.

أخذ صلاح الدين ما في القلعة من أموال وكنوز وفرقها على الأهالي، وأمر برفع المكوس وإبطال المنكرات والضرائب المستحدثة بعد وفاة نور الدين، فأعجب الناس بهذه المبادرة ومدحه الفقراء مما عزز مكانته وجمع الناس حوله<sup>7</sup>، وهو مع هذا يظهر طاعته للملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> ابن ثغري بردي، النجوم الزاهرة، المصدر السابق، ج6، ص73.

<sup>2</sup> ابن العديم، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار المسيرة، بيروت، 1979م، ج4، ص236.

<sup>3</sup> قدرى قلعجي، المرجع السابق، ص234.

<sup>4</sup> نوري، دريد عبد القادر، المرجع السابق، ص134.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص56.

<sup>6</sup> أبو شامة، الروضتين، ج2، ص340.

<sup>7</sup> قدرى قلعجي، المرجع السابق، ص235.

<sup>8</sup> ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج10، ص66.

## المبحث الرابع: الدور الأيوبي بعد وفاة الصالح إسماعيل.

تابع صلاح الدين تقدمه باتجاه الشمال بعدها عين أخاه طغتكين واليا على دمشق، فضم حمص، وتقدم باتجاه حلب بعدما استعصت عليه القلعة<sup>1</sup>.

اعتقل كمشتكين ابن الداية بعد خروج صلاح الدين، وتفرد بحكم المدينة، وسعى لتثبيت نفوذه، وأخذ يخطط لإبعاد صلاح الدين عن حلب بكل الوسائل، وعند تقدم صلاح الدين من حلب، بعث له كمشتكين كتابا وصفه فيه بالغرور والطمع ولكن صلاح كان على علم بنية كمشتكين، فكان يرأسل الملك الصالح لتوضيح الأمور له، تفاديا لتردي العلاقات بينهما<sup>2</sup>.

غادر صلاح الدين إلى حماة ووصلها في 28 ديسمبر أول جماد الثاني من سنة 570هـ/ 1174م بعد أن ترك على القلعة من يحاصرها، فخرج إليه صاحبها عز الدين جرديك وسلمه حماة دون قلعتها لأنها لم تكن تحت يده، واتفق الاثنان على أن يكون جرديك سفيرا بين صلاح الدين وبين مدينة حلب لإقرار الصلح ومنع القتال، فلما وصل إلى حلب وفتح كمشتكين في أمر الصلح اتهمه بتأييده لصلاح الدين وقبض عليه<sup>3</sup>.

لم يكتف كمشتكين بهذا فقط بل سعى للتخلص من صلاح الدين بكل الوسائل، واتجه للاستعانة بالحشاشين (الباطنيين) والصليبيين وعقد تحالفات معهم. فما لبث راشد الدين سنان وهو مقدم الإسماعيلية الباطنية أن أرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفداوية لقتله، وعند اقتراحهم من تنفيذ مخططهم انكشف أمرهم<sup>4</sup>.

كما استعان كمشتكين بريموند الثالث وهو الوصي على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، وقد قصد هذا الأخير حمص ووصل رسوله إليها سنة 570هـ/ 1175م واضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار على حلب لملاقاة ريموند. استغل صلاح الدين الفرصة واستولى على قلعة حمص وأقطع المدينة وقلعتها لابن عمه محمد بن شيركوه<sup>5</sup>.

استولى صلاح الدين بعدها على قلعة بعلبك وهكذا فشل كمشتكين في القضاء على صلاح الدين، ونجح صلاح الدين في فك الحصار على حلب<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> ابن الأثير، الكامل، مج10، ص67.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص57.

<sup>3</sup> ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تج: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، ط1، أصفهان، (د. ت)، ج2، ص531.

<sup>4</sup> ابن الأثير، الكامل، ج9، ص407. سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، المؤسسة المصرية العامة ن القاهرة، 1965م، ص114.

<sup>5</sup> علي البيومي، المرجع السابق، ص223.

<sup>6</sup> المرجع نفسه، ص223.

عبر كمشتكين عن امتنانه للصليبيين بأن أطلق سراح الأسرى في قلعة حلب وعلى رأسهم رينودي شاتيون (أرناط)<sup>1</sup>، أدرك بعدها الزنكيون أنهم يجب عليهم الاتحاد في سبيل القضاء على صلاح الدين الذي صار يشكل خطراً عليهم نتيجة ازدياد قوته ونفوذه، ولذلك قام سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل بإرسال جيش إلى الشام بقياده أخيه عز الدين، وانضم إليه الجيش الحلبي وزحف الجميع على حماة، وعندئذ عرض صلاح الدين على الزنكيين أن يترك لهم حمص وحماة على أن يقتنع هو بدمشق نائباً عن الملك الصالح متمياً إليه وتم الصلح بينهما<sup>2</sup>.

ولكن سرعان ما عادت العمليات العسكرية من جديد وانهمز فيها الجيش الزنكي في معركة في منطقته تسمى "قرون حماة" في 19 رمضان عام 570هـ/ 23 أبريل 1175م، وأسر جماعة منهم ثم أطلقهم<sup>3</sup>، وأمر بقطع الخطبة للملك الصالح، وأزال اسمه من السكة في المناطق الواقعة تحت حكمه.

دخل الطرفان في معركة أخرى تسمى بمعركة تل السلطان كمحاولة أخيرة لطرد صلاح الدين من بلاد الشام، ذلك أن سيف الدين غازي الثاني لم ييأس عندما سمع بالهزيمة، وأثاره حصول صلاح الدين على تقليد من الخليفة العباسي بحكم مصر وبلاد الشام بالإضافة إلى سك النقود باسمه<sup>4</sup>، مما دفعه إلى وضع خطه للانتقام منه فقام بإرسال إلى أمراء حلب يلومهم على تسرعهم في طلب الصلح، وأرسل إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس يطلب منه أن يتحالف معه ضد صلاح الدين<sup>5</sup>، وجهزوا جيشاً عظيماً سار باتجاه دمشق في 571هـ/ 1176م، ومضى الزنكيون بخسارة فادحة، رأى الطرفان فيما بعد الدخول في مفاوضات نتيجة التشتت الذي حصل في الصفوف الإسلامية، وتقدم كل من الطرفين بتنازلات<sup>6</sup> وهي: أن يكونوا يد واحدة ضد الصليبيين، أن لا ينقض أحد الأطراف الهدنة، أن يتنازل صلاح الدين عن قلعة عزاز<sup>7</sup> للملك الصالح إسماعيل، وعقدت الهدنة سنة 572هـ/ 1176 م<sup>8</sup>. توفي سيف الدين غازي الثاني، وخلفه عز الدين مسعود الأول<sup>9</sup>.

<sup>1</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، المرجع السابق، ص 116.

<sup>2</sup> أحمد الشامي، صلاح الدين والصليبيين، المرجع السابق، ص 11.

<sup>3</sup> ابن شداد، النوادر السلطانية والأحكام اليوسفية، تج: جمال الدين الشمال، مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1994، ص 95.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 61، 62.

<sup>5</sup> ابن واصل، مفرج الكرب، ج 2، ص 37.

<sup>6</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 62.

<sup>7</sup> عزاز أو إزاز، بلدية فيها قلعة ولها رستناق شمالي حلب بينهما يوم. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، المرجع السابق، ج 4،

ص 118.

<sup>8</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 46.

<sup>9</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص 446، 447. ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 92، 93.

توفي بعدها الصالح إسماعيل في حلب عام 577هـ / 1181م، واوصى قبل وفاته إن يخلفه ابن عمه عز الدين مسعود الاول في حكم حلب<sup>1</sup>.

ولكنه سرعان ما تنازل عن حكم حلب، نظرا للانقسامات التي ظهرت من جديد في البيت الأتابكي، ذلك أن عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجر طمع في حكم حلب فأرسل إلى أخيه عز الدين يطالبه بنصيبه من الإرث، وأن يقدم له حلب بدلا من سنجر لكنه رفض فثار عليه، وسانده في ذلك مظفر الدين كوكبوري قائد جيش حلب، وهدده بتسليم سنجر إلى صلاح الدين<sup>2</sup>، مما دفع به إلى التنازل عن حلب مقابل سنجر، فيما ظفر مظفر الدين كوكبوري بإمارة حرّان على سبيل المكافأة<sup>3</sup>.

وسط هاته الظروف المشحونة قرر صلاح الدين مغادرة مصر باتجاه الشرق، لأنه رأى في تصرف عز الدين مسعود نقضا للمعاهدة المبرمة بين الطرفين، وطلب من تقي الدين أخيه وغيره من الأمراء بمهاجمة مناطق غرب الجزيرة، لكنه عجز عن ذلك، ولم يستطع منع عز الدين مسعود من دخول حلب، في الوقت الذي كان فيه فروخ شاه حاكم دمشق منهمكا في التصدي لمحاولات أرناط لاجتياح الجزيرة العربية<sup>4</sup>.

كتب صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله، يعدد له انتصاراته، وموضحا له سوء الأوضاع في بلاد الشام، وتعرض حارم لهجوم الصليبيين، وكان له ذلك فحاصرها ثلاث أيام، وبعدها رحل إلى الموصل، وحاصرها على ثلاث مراحل، حيث فشلت المفاوضات في المرحلة الأولى، وضم خلالها سنجر سنة 578هـ / 1182م، واخلقت كل المحاولات من جانب عز الدين مسعود وحلفائه لإخراج صلاح الدين، واستمر في توغله فضم آمد وحلب سنوات 578هـ، 579هـ، مما زاده قوة، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكا<sup>5</sup>.

في الحصار الثاني للموصل حاول صلاح الدين تدعيم موقعه أمام الخليفة العباسي لعجزه على الاستيلاء على الموصل بسبب تعثر المفاوضات، وبخبره بعزمه على تصفية أموره بالموصل، وحاول ضم خلاط وميفارقين<sup>6</sup>، وتحقق له ذلك.

<sup>1</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص106، 107.

<sup>2</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص454، 455.

<sup>3</sup> محمد سهيل طقوس، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص68.

<sup>4</sup> ابن شاهنشاه، محمد تقي الدين عمر، مضممار الحقائق وسر الخلائق، تح: حسن حبشي، عالم الكتب للنشر والطبع، القاهرة، 1980، ص60، 61.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوس، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص69-75.

<sup>6</sup> ميفارقين: أشهر مدينة في ديار بكر، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص235.

استغل عز الدين مسعود مرض صلاح الدين وبعد محادثات بين الطرفين تقرر ما يلي: أن يبقى عز الدين مسعود الأول حاكماً على الموصل، ويخطب لصلاح الدين على منابر الموصل وأن يتعهد بمساعدته بالجيش والعتاد لاسترداد بيت المقدس.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 81.

## المبحث الخامس: تعقيب حول علاقات صلاح الدين مع الزنكيين

تميزت العلاقات بين الملك الناصر ونور الدين محمود عموماً بالود، لكن وقع ما أوجب العداء بينهما، أو حسب ما سمته المصادر بالوحشة، يعود سبب هذه الوحشة إلى عودة صلاح الدين إلى مصر، بعد أن خرج منها وتوجه إلى حصن الشوبك سنة 567هـ/1172م، وذلك بعدما تفاهم مع نور الدين محمود على منازلة الفرنج، مما اعتبره نور الدين تمرداً عليه وأنه يريد الانفرد بحكم مصر، فعزم على إخراجهم من حكم مصر.

والواقع أن الخلاف بين الرجلين قد بدأ مبكراً منذ تولي صلاح الدين الوزارة على مصر، وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر السياسية، فكان نور الدين يرى بأن دمشق هي قلب الإسلام، فيما أدرك السلطان الناصر أهمية مصر الجغرافية والاقتصادية، وهذا ما أدركه الصليبيون فسعوا إلى امتلاكها.

بعد وفاة نور الدين محمود، برز صلاح الدين كشخصية قيادية فذة، لاسيما بعد المشاكل التي توالى بعد موت نور الدين من صراع أمراءه وورثته، مما أدى إلى تعكير صفو الوحدة الإسلامية، فأخذ صلاح الدين على عاتقه مهمة توحيد الجيوش الإسلامية.

كان لنور الدين ابناً صغيراً لا يتجاوز 11 سنة من عمره، وهو الصالح إسماعيل، وشكلت الوصاية عليه مشكلاً واضطرابات سياسية في بلاد الشام وكثرت الحروب والفتن.

قامت سياسة صلاح الدين على مزيج بارع من الحرب والدبلوماسية لمواجهة ورثة نور الدين والتغلب عليهم، فاختار هذا الأخير عدم التدخل في شؤون ولي العهد الصالح إسماعيل، فكان كلما سئمت له الفرصة يؤكد أنه نصير للبيت الزنكي، حيث قام بإرسال مراسلة إلى ابن المقدم يشرح له أنه يريد السلم للبيت الزنكي وللإسلام والمسلمين كافة ولا يريد سوى لم الشمل ونبد الحرب.

نشوب صراع بين ابن الداية في حلب وابن المقدم في دمشق بسبب اختلاف وجهات النظر السياسية، في هذه الأثناء قرر صلاح الدين التصرف بروية وهدوء، حيث أن هدفه كان أسمى من مجرد الوصاية على الملك الصالح، ألا وهو توحيد الجبهة الإسلامية في صف واحد ضد العدو الصليبي.

في ظل الصراع القائم بين أمراء الصالح إسماعيل بادر الملك الناصر صلاح الدين للزواج بعصمة الدين خاتون بنت أنر أمثلة نور الدين، وهو يعد زواجا سياسيا بامتياز، لحفظ البيت الزنكي من الانقسام وتعزيز حظوظه في الوصاية

وجاءت ثمرة جهد وصبر صلاح الدين بكسبه تقليداً جامعاً على مصر والشام من قبل الخليفة العباسي المستضيء بالله، وأصبحت الوصاية على الملك الصالح موضع صراع بين الحلبيين والدمشقيين،

وأمام هذه الفوضى العارمة، والأوضاع المضطربة، أخذ صلاح الدين بتوجيه جهوده نحو بناء الجبهة التي طالما حلم بها، وأراد تنفيذها على أرض الواقع.

على إثر تحالف أمراء الملك الصالح في وقت حرج جدا مع الكيان الصليبي على أعقاب مهاجمته على بانياس، فاستعد صلاح الدين للدخول الى دمشق متبعا جملة من التدابير.

بعث صلاح الدين برسالة إلى الملك الصالح يلومه بعدم إعلامه بتملك سيف الدين غازي بلاد الجزيرة، كما أرسل إلى الأمراء يذكرهم لو أن نور الدين مازال على قيد الحياة، لكان أنكر هذا العداء بينهم، ولا وكله (الملك الناصر) أمر الوصاية على ابنه. مما يؤكد رغبة صلاح الدين في توحيد صفوف المسلمين، وليس طمعا في الحكم والتفرد بالسيادة عليهم.

أرسل في هذه الأثناء السلطان إلى الخليفة يعدد له انتصاراته، ويطلب تقليدا شاملا لحكم مصر واليمن والمغرب والشام فكان له ذلك.

وسط استيلاء كمشكتكين على حلب، وسعيه إلى توسيع نطاق حكمه، لم يجد ابن المقدم سوى حل دعوة صلاح الدين ليملكه بلاد الشام.

خرج صلاح الدين من مصر وترك بما أخوه العادل في أواخر جمادى الآخرة سنة 570هـ / 1174م متوجها نحو الشام. لم يجد صلاح الدين أي مقاومة من طرف الدمشقيين، ففضى على الثورات التي هددت استقرار الحال في مصر، واستقبل استقبالاً رائعاً في دمشق، بعد ستة أشهر من وفاة نور الدين قضاها يراقب في أوضاع دمشق السياسية وينتظر الفرصة الملائمة للتدخل.

بعد وفاة الملك الصالح إسماعيل، تجددت الممارسات الانفصالية من طرف كمشكتكين، فهاجم الملك الناصر هذا التمرد خصوصا بعدما تحالف هذا الأخير مع الصليبيين، وانتهج الأسلوب العسكري، ودارت بينهما معارك، ولم يكتفي كمشكتكين بذلك فقد تحالف مع الحشاشين ضده، لكن مخططهم انكشف.

كانت المعارك التي خاضها السلطان الأول معركة قرون حماة 570هـ / 1175م، وثاني كل السلطان في العام الموالي 571هـ / 1176م فرصة للملك الناصر حيث أفرزت معاهدات واتفاقيات بينه وبين الزنكيين.

توفي الصالح إسماعيل في 577هـ / 1181م وخلفه ابن عمه عز الدين مسعود على حكم حلب، وساءت الأوضاع من جديد في بلاد الشام، لكنها حلت في الأخير، ببقاء عز الدين على حكم الموصل بشرط أن يخطبها لصلاح الدين على منابر الموصل وأن يتعهد بمساعدته بالجيش والعتاد لاسترداد بيت المقدس.

لجأ صلاح الدين إلى استعمال القوة العسكرية لكي يقضي على المؤامرات التي من شأنها أن تهدد استقرار الجبهة، هذه الأساليب العسكرية تمخضت عنها إلزامية هؤلاء المتمردين اللجوء إلى العمل السياسي وذلك بطلب المعاهدات والاتفاقيات كدليل على استسلامهم، فلو استمر العمل العسكري، لأصبح هؤلاء في عداد القتلى.

# الفصل الثاني



الفصل الثاني: سياسة صلاح الدين مع القوى الإسلامية.

المبحث الأول: الخلافة العباسية.

سلك صلاح الدين نفس الطريق الذي سلكه نور الدين محمود قبله، حيث أنه عاش في كنف الزنكيين الذين ربطتهم علاقات حسنة إجمالاً، فقد كان نور الدين يحترم الخليفة المستضيء بأمر الله، وبادله الخليفة نفس الاحترام، فكان يحث الأمراء على مساندته في حربه ضد الصليبيين، ويرسل إليه الخلع والتشريفات.<sup>1</sup>

فابتدأت علاقته الجيدة بالخليفة العباسي منذ عام 567هـ / 1171م، عندما كان وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد<sup>2</sup>، فقد طلب منه الخليفة العباسي آنذاك أن يقطع الخطبة للفاطميين ويدعو للعباسيين على منابر مصر، ففعل صلاح الدين ذلك إحتراماً منه لمقام الخلافة، وبعد وفاة نور الدين، ونتيجة للخلاف بين الأمراء، استغل الصليبيون ذلك وهاجموا الأراضي الإسلامية، فتدخل صلاح الدين، وحتى يعطي لتدخله شرعية كتب للخليفة العباسي، يخبره عما يجري في بلاد الشام من أوضاع ويبين له جهوده اتجاه الصليبيين، ويطلب منه تقليداً جامعاً لمصر والمغرب واليمن والشام.<sup>3</sup>

وقد ذكر أبو شامة ما جاء في رسالة صلاح الدين، وهو عبارة عن كتاب طويل ذكر فيه جهاده اتجاه الصليبيين، وفتوحاته في مصر واليمن، وأطراف المغرب، ويخبره فيها عن أوضاع مصر وسوء أحوالها، وأكمل قوله: "والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة، يحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العهد، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن والمغرب والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيفنا وسيف عساكرنا"<sup>4</sup>. في دليل واضح على وفاء صلاح الدين للخلافة العباسية وحسن علاقته بها، حيث أنه لم يفتح بلاد إلا وبعث للسلطان العباسي، وما طراً أو استجد شيء إلا أطلعه عليه.

فاستجاب له الخليفة العباسي، وأرسل له بالتقليد والتشريف والأعلام السود، والتفويض<sup>5</sup>، وهذا ما يدل أيضاً على التعامل الصادق والثقة التي تكنها الخلافة لهذا الأخير.

وقد حفظ لنا القلقشندي<sup>6</sup> في كتابه مآثر الأنافة نسخة من العهد الذي حدد البلاد التي تخضع لحكم صلاح الدين وجاء فيه: "أن أول من جاءت رباعه سُحِب الاصطناع، وخص من الاصطفاء، والاختبار بالصفايا والمرباع... اقتضت الآراء الشريفة إمضاء تصرفه وإنفاذ حكمه في بلاد مصر وأعمالها والصعيد الأعلى والإسكندرية، وما يفتحه من بلاد

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيون، المرجع السابق، ص 83.

<sup>2</sup> نفسه، ص 83.

<sup>3</sup> القلقشندي، صبح الأعشى في صياغة الإنشاء، دار الكتب السلطانية، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1918م، ج 13، ص 88-90.

<sup>4</sup> أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص 375، 366.

<sup>5</sup> البنداري، سنا البرق الشامي، المصدر السابق، ص 61، 62.

<sup>6</sup> مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فواج، ج 3، عالم الكتب، بيروت، (د. ت)، ص 86-99.

العرب والساحل وبلاد اليمن... وأمره بإحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد... وأمره أن يأمر بالمعروف ويطهر مناره، وينهى عن المنكر ويححو آثاره... عاملاً في ذلك بمقتضى جده اجتهاده، ليحزر السبق في دنياه وعقابه..."

وفي سنة 570هـ / 1174م جرت معركة بين صلاح الدين وأصحاب الصالح اسماعيل، وسميت بوقعه "فرون حماة" يوم الأحد 19 جمادى الأولى، انتصر فيها صلاح الدين، وغنم كل ما معهم، وسار حتى نزل حلب، وقطع الخطبة للخليفة الصالح، وأزال اسمه من السكة في بلاده، فبعث إليه أهل الصالح يلتمسون منه الصلح، فأجاب واشترط على أن يكون له بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب<sup>1</sup> وبالتالي أصبح سلطان مصر وبلاد الشام.<sup>2</sup>

وفي عهد الخليفة الناصر لدين الله 575هـ - 662هـ / 1180م - 1225م، وفيما يخص العلاقات مع صلاح الدين، ففي السنة التاسعة من ولاية صلاح الدين على مصر، انتقلت الخلافة العباسية إلى الخليفة الناصر لدين الله بعد وفاة والده المستضيء بالله سنة 575هـ / 1179م، حدث ذلك أثناء وجود سفير صلاح الدين ضياء الدين الشهرزوري في بعض المهمات في بلاط الخليفة، فحضر إلى الديوان وبايع، وكاتب السلطان بالخبر فبادر إلى الخطبة للخليفة الناصر في جميع البلاد.<sup>3</sup>

وفي حدود سنة 576هـ / 1180م، أي بعد عام من تولي الخليفة الناصر الحكم وصل رسله وهم: الشيوخ أبي القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل ومعه شهاب الدين بشير الخاص بالتفويض والتقليد والتشريف، فكان وصولهم كيوم عيد، فتلقاه السلطان بالتعظيم والتمجيد، ونزل الرسل إليه، وسلموا عن أمير المؤمنين فتقبل الغرض، وقبل الأرض ثم ركبوا ودخلوا دمشق، فأنزلهما أكرم منزل، أراد السلطان زيارة قبر الإمام الشافعي، وصاحبه شيخ الشيوخ للديار المصرية ومنها توجه إلى مكة.<sup>4</sup>

يقول أبو شامة<sup>5</sup> نقلاً عن العماد: "فتلقيناهم بالتعظيم والتمجيد، وركب السلطان للتلقي، وعلى صفحاته بشائر الترقى، فلما تراءى له الرسل الكرام ووجب له الإجلال والإعظام، نزل وترجل وأبدى الخضوع... فتقبل الغرض وقبل الأرض، ثم ركبوا ودخلوا المدينة. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على مدى أهمية الخلافة عند الأيوبيين، ومدى احترام صلاح الدين للخليفة في احترامه للرسل الذين يمثلون الخليفة، وبالتالي فهو يقدم فروض الطاعة والولاء كلما سنحت له الفرصة.

<sup>1</sup> كفر طاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في بركة معطشة، ليس لهم شرب إلا مما يجمعونه من مياه الأمطار في الصحاريح، وحفروا نحو ثلاثمائة ذراع فلم ينبت لهم ماء. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص 469.

<sup>2</sup> المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، ج1، ص168، 169.

<sup>3</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص92.

<sup>4</sup> ابن شاهنشاه، المصدر السابق، ص51.

<sup>5</sup> المصدر السابق، ج3، ص65، 66.

وخلع الخليفة الناصر لصلاح الدين أثوابا مذهبة، وجوادا من ممتلكاته الخاصة عليه سرح من ذهب وفضة وغير ذلك من الهدايا الثقيلة، فركب السلطان بالخلع وزينت له دمشق وكان يوما مشهودا.<sup>1</sup>

وفي سنة 577هـ/ 1181م توفي الملك الصالح إسماعيل<sup>2</sup>، وأوصى بأن يحكم أمر الزنكيين من بعده ابن عمه<sup>3</sup> عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي<sup>4</sup>، خوفا من استيلاء صلاح الدين على حلب، ومن بين حيل ودهاء السلطان الذي تميز به، أنه أرسل إلى الخلافة وأشار إلى جهاده وفتوحاته، وعند تأخر الخلافة في الرد على صلاح، أخذ يرسل قواته إلى حلب ثم توجه إلى الموصل، وأرسل مرة أخرى للخليفة الناصر، وما كاد أن يسقط الموصل تحت حكمه لولا وصول رسل الخليفة سنة 578هـ/ 1182م من أجل التفاوض بين السلطان وصاحب الموصل، وانتهت المفاوضات بينهما بالصلح<sup>5</sup>، بعد ذلك توجه السلطان إلى سنجار<sup>6</sup> وملكها، وبعدها اتجه إلى آمد وحاصرها، وتسلمها بعد أن استأذن الخليفة الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين في ذلك.<sup>7</sup>

وبعدها وفي سنة 579هـ/ 1183م، دخل السلطان صلاح الدين إلى حلب<sup>8</sup>، وفي نفس السنة طلب صاحب الموصل من الديوان العزيز إرسال شيخ الشيوخ للشفاعة والصلح مع سلطان، فأرسل معه شهاب الدين بشير، ومحيي الدين الشهروري مما أجل الصلح فأقاموا مدة ورحلوا بغير طائل.<sup>9</sup>

وفي سنة 580هـ/ 1184م، لما وصل السلطان صلاح الدين إلى دمشق، وجد بها رسل الخليفة الإمام الناصر لدين الله، هما الشيخ صدر الدين وبشير الخادم، كان قد وصلا إلى دمشق والسلطان محاصر المكوك، فمرضا بدمشق، ومات جماعة من أصحابهما، وسبب قدومهما في معنى تقرير الصلح بين السلطان وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل، فلم يتقرر أمر، واستأذنوا في العودة إلى بغداد قبل الشتاء، فأذن لهم، فمات بشير الخادم، صدر الدين، وكان صالحا زاهدا، وفي

<sup>1</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص66.

<sup>2</sup> ابن العربي، تاريخ مختصر الدول، تصح: الأب أنطون طالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، ط2، 1994م، ص379.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ص185.

<sup>4</sup> الملك عز الدين أبو المظفر مسعود ابن الملك مودود بن الأتابك زنكي ابن آقسنقر، الأتابكي، التركي، الذي عمل المصاف مع صلاح الدين على قرون حماة، فانكسر مسعود سنة سبعين، ثم ورث حلب، وأوصى له بها ابن عمه الصالح إسماعيل، فساق وتزوج بوالدة الصالح، فحاربه صلاح الدين وحاصر الموصل ثلاث مرات، وجرت أمور ثم تصالحا، وكان موتهما متقاربا. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1984م، ج22، ص273.

<sup>5</sup> البنداري، المصدر السابق، ص204.

<sup>6</sup> سنجار: سميت بهذا الاسم نسبة إلى أرسلان بن سلجوق الذي ولد بها، وقد خرج منها جماعة من أهل العلم والأدب والشعر. انظر، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص262.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص134.

<sup>8</sup> ابن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد الحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، الجزيرة، 1995م، ج12، ص313.

<sup>9</sup> الأصفهاني، المصدر السابق، ص244. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص155، 156.

نفس السنة قدم رسل الخليفة إلى السلطان ومعهم الخلع فلبسها وألبس أحياه الملك العادل وابن أسد الدين ناصر الدين خلعا جاءت له.<sup>1</sup>

وفي سنة 581هـ/1185م، عاود صلاح الدين الحصار على الموصل للمرة الثانية، وسار معه أتاك عز الدين و والدته وابنه الملك نور الدين محمود، وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة فردهم خائبين، فقاتله أهلها، فرحل عنها ونزل على ميافارقين فأخذها بالأمان، ووقع الصلح بينه وبين أهل الموصل على أن يخطبوا له وأن يكون صاحبها طوعه، وأن يكون لصلاح الدين شهرور وحصونها<sup>2</sup>، وقد أورد صلاح الدين الخليفة الناصر حججا تبرر حصاره للموصل ومنها أن أهلها يواصلون الأعجام، وخاطبوا لسلطانهم ونقشوا اسمه على الدنانير والدرهم... وأنهم يراسلون الفرنج... وأن مطلبه من ذلك إلا ردهم إلى طاعة الإمام ونصرة الإسلام، وقطعهم عن مواصلة الأعجام والزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الأرحام.<sup>3</sup>

يبدو أن الانتصارات التي حققها صلاح الدين وسعيه إلى توحيد صفوف المسلمين والخطبة للخلافة في جل تحركاته، زادت من ودية العلاقات بينه وبين الخليفة الناصر.

وفي سنة 582هـ/1186م ملك صلاح الدين مدينة طبرية، وقلعتها وسار عنها ونزل على عكا، وملك قيسارية وحيفا... ويافا وصيد وبيروت وعسقلان وغيرها من المدن، ولما فرغ من أمر هذه الأماكن سار إلى بيت المقدس<sup>4</sup>، وكان له ذلك أي فتح بيت المقدس<sup>5</sup>، وهو ما سنتطرق إليه في الحديث عن علاقة صلاح الدين بالصلبيين.

ونتيجة لهذا الانتصار الكبير، كتب صلاح الدين لوجه علقها على باب مدينة القدس وقد ذكر ابن الكازروني ما جاء فيها في كتابه مختصر التاريخ<sup>6</sup>، وأرسل إلى الخليفة الناصر سنة 585هـ/1189م عدد من الأسرى بالإضافة للهدايا والتحف وتاج ملك الإفرنج الصليبي، الذي كان فوق صخرة بيت المقدس، ودفن الصليب تحت عتبة باب النوبي ببغداد، وظل قسم منه بارزا إلى الخارج، فكان الناس يمرون عليه دلالة على الاعتزاز بالنصر الذي حققته جيوش المسلمين، وكان من نحاس مطلي بالذهب.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص162، 163.

<sup>2</sup> ابن العبري، المصدر السابق، ص382.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص227، 228.

<sup>4</sup> ابن العبري، المصدر السابق، ص383، 384.

<sup>5</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص171.

<sup>6</sup> ابن الكازروني، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح: مصطفى جواد، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد، 1970م، ص246.

<sup>7</sup> المقريري، المصدر السابق، ج1، ص215.

مما يلفت النظر أنه بالرغم من الصلات الودية التي تربط صلاح الدين والخليفة الناصر، إلا أن صلاح الدين لم يطلب مساعدة الخلافة لدعمه عسكرياً، بالرغم من أنه استعان بقوات أمراء الأطراف، حيث وصل رسول دار الخلافة المدعو فخر الدين نقيب العلويين بمشد النجدة والرحمة واحتفل السلطان بقدمه، وصل ومعه حملان من النفط الطيار وحملان من القنا الخطار... وأخذ السلطان هذه المعونة وشكر الديوان عليها ورد التوقيع عليه<sup>1</sup>، ولجأ صلاح الدين إلى التأييد الروحي للخلافة والدعم المعنوي، واللجوء إلى الخلافة فقط عند الأزمات لفض المنازعات الداخلية والتي من شأنها التأثير على صفو الجبهة التي سعى من أجل بنائها واتحادها.

### • الخلاف بين صلاح الدين والناصر لدين الله

على الرغم من تعلق صلاح الدين بالخلافة العباسية، والعلاقات الودية بينه وبين الناصر لدين الله وقبله المستضيء بأمر الله، إلا أنه لا يعني أنها كانت حسنة طول فترة حكم صلاح الدين، حيث تخللتها فترات من النفور، وتحسس من الجانبين مما أدى إلى تدهور العلاقات بين الطرفين.

ونظراً لكثرة فتوحات صلاح الدين، فقد كان يرسل للخليفة التهاني والهدايا، ولكن عند انتصار صلاح الدين في حطين 583هـ/1187م بعثها إلى الخليفة بهدايا لم تعجبه، مما أوجبت عتبه ولومه على صلاح الدين، يقول ابن واصل<sup>2</sup>: "لما كسر الفرج بحطين قد ندب للرسالة إلى الديوان العزيز في معنى البشارة شاب بغدادي من الأبناء كان قد هاجر إلى الأبواب السلطانية، وكان ببغداد خاملاً، كثير الإدبار، يعرف بالرشيد البوشنجي".

وأضاف أبو شامة: مستمراً في دروب بغداد، فتوجه إلى الشام هارباً من الفقر والفاقة، وكان يعرف بالرشيد البوشنجي، ويبدو أن هذا الرجل لم يكن يليق بمقام الخلافة مما أدى إلى استياء الناصر لدين الله، وأنه كان ضييعاً عندهم.<sup>3</sup>

فلما سيّر السلطان في الرسالة إلى بغداد قامت القيامة بمراسلته، وأنت ترى ذلك على السلطان غاية الإنكار، وقد استغل أعداء السلطان هذا الأمر لصالحهم، فتطرقوا إلى القول والقدح فيه وراحوا إلى إبعاد السلطان وإحلال قلب الخليفة عليه، فقالوا: "أنه أساء الأدب لإبقاء اسمه بالملك الناصر مضافاً للأشرف، الذي هو الامام الناصر، وإن مقصودة قلب الدولة... وقالوا من ذلك ما أكثر وأحنق الديوان<sup>4</sup>، وهنا يمكننا القول ان هؤلاء ارادوا وضع حد للعلاقات الودية بين الخليفة والسلطان صلاح الدين و اشار الى ان صلاح الدين سمي نفسه بالناصر، مع انه كان يعلم أنه لقب لُقّب به الخليفة.

<sup>1</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص314.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ج2، ص248.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص418. ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص227.

<sup>4</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص249.

وجاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي في حوادث سنة 577هـ/ 1181م، أن الملك الناصر أرسل يعاتب السلطان صلاح الدين في تسميته بالملك الناصر مع علمه أن الخليفة اختار هذه التسمية لنفسه<sup>1</sup>، ووافقه في هاته الرواية الذهبي فذكر معاتبه صلاح الدين على تسميته بالناصر وقال: وفيها أرسل من الديوان الى السلطان صلاح الدين يأخذ عليه في أشياء منها تسميته بالملك الناصر، مع علمه أن الإمام اختار هذه التسمية لنفسه.<sup>2</sup>

لم يكتب أعداء صلاح الدين بهذا فحسب، بل أرسلوا أخا العماد الكاتب في كتاب عددوا فيه أمورا كثيرة منها، الرسول المبعد من العراق، وأن أخاه كان يرأسل التزكمان والأكراد ومهاداتهم وقرع اسماعهم، وهم لا يعرفون لا أنهم رعية للعراق<sup>3</sup>، يبدو أن هذا الكتاب شديد اللهجة جاء بمثابة تهديد لصلاح الدين لسحب الشرعية منه.

ولكن صلاح الدين أرسل إلى الخليفة معتذرا عن تقصيره في أمر الهدايا، وقال أن ذلك تقصير سببه أنه كان منشغلا بأمور الحرب، وعن لقبه فإنه ليس بالجديد وأنه من عهد المستضيء بنور الله "والآن ما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو إسمي الذي أتشرف به وأعرف، وما غرضي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين وقطع دابر الكفر والمنافقين والمشركين".<sup>4</sup> وأورد القلقشندي نسخة العهد المكتوب وما جاء فيه من قبل ديوان الخلافة ببغداد للسلطان صلاح الدين، حيث أنه جاءه تقليد بحكم الديار المصرية والشامية واليمنية، وحدث هذا لما كان الخليفة الناصر متغيرا على صلاح الدين حيث تلقب بالملك الناصر<sup>5</sup>، لذلك اختار صلاح الدين تبرير موقفه لكي لا تزداد العلاقات سوءا بينهما، لذلك تأدب معه واعتذر منه.<sup>6</sup>

ومن بين الأسباب أيضا ما ذكر في توتر العلاقات بين الطرفين، في ذكر استشهاد الأمير شمس الدين بن المقدم، ففي سنة 583هـ/ 1187م وصل خبر وفاته إلى صلاح الدين وأنه راح ضحية غرور أمير الحج طاشتكيك وطيشه<sup>7</sup>، فتألم صلاح الدين بهذا الخبر، مما أثر سلبا على العلاقات وأحدث فجوة بين السلطان والخليفة الناصر.

ويمكن أن تكون هناك أسباب خفية لتوتر العلاقات بين السلطان والخليفة العباسي، حيث أن صلاح الدين صار في هاته المرحلة بطل حطين ومحرم القدس من أيدي الصليبيين فأخذ يزداد شهرة، وذاع صيته في أنحاء العالم، فأحس الخليفة أن

<sup>1</sup> السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2003م، ص355.

<sup>2</sup> الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، "حوادث وفيات 575هـ-580"، تح: عملا عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1، بيروت، 1996م، ص44.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ص421، 422.

<sup>4</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص420. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص250. ابن كثير، المرجع السابق، ج12، ص326، 327.

<sup>5</sup> القلقشندي، المصدر السابق، ج3، ص86، 87.

<sup>6</sup> ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص327، 328.

<sup>7</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص425.

شعبية صلاح الدين طغت عليه، ولكن رغم كل المحاولات للنيل من ودية العلاقات التي تجمع صلاح الدين مع الخلافة العباسية، والسعي من أجل وضع حد لها من خلال الفتن وكيد المكائد، يتضح لنا جليا أن صلاح الدين لم يدع لهم الفرصة لإفساد ما بناه وسعى من أجله، وحافظ على ولائه للخلافة، ونبذ التفرقة، وسعى إلى إعلاء راية الخلافة عاليا.

المبحث الثاني: الطائفة الإسماعيلية (الحشاشون)<sup>1</sup>

نقم الحشيشية<sup>2</sup> على صلاح الدين بعد اسقاطه الخلافة الفاطمية في مصر، وأول محاولة لاغتياله، أن عمارة اليميني ورفقائه، قاموا بمراسلة صاحب الحشيشية سنان<sup>3</sup>، من أجل تدبير كمين للقضاء على صلاح الدين، فأرسل إليه بعض الفداوية<sup>4</sup>، مقابل الحصول على منح وهدايا قيمة<sup>5</sup>، وفي الواقع أن هؤلاء الحشاشون كانوا يتفنون في عمليات القتل والاعتقال، فهو بمثابة امتداد لتحركهم السياسي، حيث اعتبروا على أنهم عصابات وحشية متعطشة للدماء<sup>6</sup>، وكان عدائهم للمسلمين أكثر من عدائهم للفرنج، نيابة عنهم<sup>7</sup>، وفي سنة 570هـ/1174م عند توجه صلاح الدين لحصار حلب، أرسل كمشتكين إلى رشيد الدين سنان يطلب مساعدته للقضاء على صلاح الدين.

ووعده بأن يضمن لسنان أموالاً جمة وعدة من القرى، أرسل سنان جماعة من فُتَّاك أصحابه لاغتيال السلطان، فاختلطوا بالعسكر، عرفهم صاحب بوقيس، لكنهم قتلوه، وجاء من يدافع عليه فحرج بعضهم وقتل بعضهم الآخر، ونجح أحدهم في الوصول إلى باب خيمة السلطان وبيده سكين، ولكن لحسن حظ السلطان اعترض طريقه طغرل أمير جاندار فقتله، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا منهم الكثير.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> الحشاشون: هم من الشيعة الاثني عشرية، تتبع ابن الإمام السادس جعفر الصادق "إسماعيل"، وعرفوا بهذا الاسم، وظلوا يحملون في الخلفاء لفترة طويلة، وتمكنوا من تكوين فرقة متماسكة ومنظمة، وتهدف إلى إقامة نظام قائم على إمام يرأسه، وهو الوريث المختار من الله، والزعيم الشرعي الوحيد، وهو مركز النظام، والعمل السري، ما يميز هذه الفرقة، وتفسيرها الرمزي للقرآن "تأويل الباطن" ومنه اشتق تعبير الباطنية. انظر: برنارد لويس الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تر: محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، ط2، القاهرة، 2006م، ص49-51.

يقسم ابن مسير الإسماعيلية إلى أقسام: الذين بالشام يعرفون بالحشيشية، ومن كان بالموت الباطنية، والملاحدة، ويقاليم خرسان بالتعليمية، وكلهم إسماعيلية. انظر: ابن مسير، أخبار مصر، تصح: هنري ماسيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعبادات الشرقية، القاهرة، 1919م، ج2، ص68.

<sup>2</sup> كانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب أكبر الكبائر، لذلك سمو بالحشاشين لا الحساسين. انظر: لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، تر: محمد أحمد عبد الرزاق، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، 2017م، ص142.

<sup>3</sup> راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد، صاحب قلاع الإسماعيلية، ومقدم الباطنية، وإليه تنتسب الطائفة السنانية. انظر: المقرئ، المص در السابق، ج1، ص173.

<sup>4</sup> أدنى طبقة "الفداوية" وهم الذين يطلب إليهم أن ينفذوا الأوامر من غير تردد... انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، تر: محمد بدران، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، ج2، مج4، ص317. حسن الأمين، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز التقدير للدراسات الإسلامية، ك2، بيروت، 1997م، ص111.

<sup>5</sup> وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص100.

<sup>6</sup> A.J.Arbeny, the legacy of Persia, the clarendon press, oxford, 1953, p85.

<sup>7</sup> وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص100.

<sup>8</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص354-350.



لم يكتف الحشاشون بهذه المحاولة الفاشلة، فكررُوا المحاولة في سنة 571هـ/ 1176م في شهر ذي القعدة ليلة الأحد، وهو نازل على عزاز، ولما كان صلاح الدين في خيمة الأمير جاولي قرب المنجنيقات، يحضر لمشاهدة الآلات وترتيب الهجمات، وحضّ الرجال، والحث على القتال، وثب عليه أحد الحشاشين حيث كان متنكراً في زي الأجناد، فضرب رأسه بسكينة، فأعاقته صفائح الحديد عن قتله، ووقع عليه سلطان وركبه إلى أن جاء سيف الدين تازكوج إليه وقتله، وخرج آخر فاعترض الأمير داود بن منكلان طريقه، وتمكن الحشيشي من جرحه ومات بعد أيام، وجاء آخر قطعته ناصر الدين بن شيركوه.<sup>1</sup>

أمّا صلاح الدين فقد نجحاً بأعجوبة من هاته المؤامرة، فبدأ يدرس هو وجيشه على وضع التحصينات على خيمته، ونصب له في وسط سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام ولا يدخل عليه إلا من يعرفه<sup>2</sup>، يمكن القول أن هؤلاء الباطنية أصبحوا يشككون تدريجاً لصلاح الدين، لذلك عزم على محاربتهم والقضاء عليهم، فسار إليهم، وحقد على من في حلب لما فعلوه به جراء تعاونهم مع الحشيشية، نزل حلب، وضربت خيمته على رأس جبل جوشن، وجرر أموالها، وأقطع ضباعتها، وضيق على أهلها، وبعدها حصل الصلح بينهم، ولكن صلاح الدين أراد الثأر منهم على ما فعلوه به تلك الليلة، فرحل يوم الجمعة وحاصر مصيف، ونصب على أهلها المجانيق، وأوسعهم ضرباً، وساق أبقارهم<sup>3</sup>، وانتقم بذلك صلاح الدين من الحشيشية شر انتقام، لكن استعصت عليه قلعة مصيف التي قاومت الحصار لمدة أسبوع<sup>4</sup>.

توصل الطرفان إلى الصلح وذلك لعدة أسباب، من بينها أن خال صلاح الدين شهاب الدين الحارمي صاحب حماة تدخل للصلح بعدما أرسل إليه سنان التوسط بينه وبين ابن أخته، وقال: أن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه، فحضر شهاب عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصفح عنهم، فأجابته إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم<sup>5</sup>.

طلب جنوده بعد ذلك العودة إلى بلادهم، لأنهم ملوا من محاصرة القلعة بعدما غنموا عسكر الموصل ونهبوا بلاد الاسماعيلية، فأذن لهم صلاح الدين بذلك، وسار هو إلى مصر، وفك الحصار عن القلعة لعدم تمكنه منها.<sup>6</sup>

لما كان صلاح الدين بمصيف يحاصر قلعة الحشاشين، هجم الصليبيون على أعمال بعلبك، فتصدى لهم الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، حاكم بعلبك، وتمكن من أسر أكثر من مائتين، قتل منهم جماعة، وأحضر الأسرى إلى مجلس

<sup>1</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص409.

<sup>2</sup> المصدر نفسه، ص410. راغب السرجاني، الشيعة ومحاولات اغتيال صلاح الدين الأيوبي، قصة الإسلام، 2014/09/32، 12:00.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص413-423.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص99.

<sup>5</sup> ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج9، ص423.

<sup>6</sup> المصدر نفسه، ص423.

صلاح الدين وهو يحاصر مصيف<sup>1</sup>، فخاف من قيام الصليبيين بتوسيع نطاق هجماتهم، وأحس أنه يجب تجميع قوته وتركيزها لقتال الصليبيين لأن قلاع الحشيشية متينة وحصينة، وهي بذلك تستغرق وقتاً وجهداً كبيرين.<sup>2</sup>

ذكر ابن الأثير بأن صلاح الدين طلب من سنان قتل ريتشارد قلب الأسد، وكونراد مونتيفرات صاحب صور، ووعدته بدفع الأموال مقابل ذلك، لكن سنان خشي أن يتخلص صلاح الدين من أعدائه، ويتفرغ للحشيشية ويقضي عليهم، اكتفى بقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد.<sup>3</sup>

وهذا هو آخر احتكاك بينه وبين الحشيشية، وكنعقيب لعلاقة صلاح الدين مع هذه الطائفة، نجد أنه من البديهي أن يشتبك معهم، ويرجع هذا الاشتباك والتنافر بالدرجة الأولى إلى الاختلاف المذهبي، فمن خلال المصادر نرى أن هذه الطائفة كانت اسماعيلية نزارية، وعند قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية التي تعتبر الوجهة الأولى لهم، لم يتقبلوا ذلك، فقد كان هدف صلاح الدين إزالة المذهب الشيعي، واستبداله بالسني، ونشره على نطاق واسع من العالم الإسلامي ككل وتوحيد صفوفه.

لعبت العقيدة دوراً أساسياً في تاريخ المسلمين كله، لأن هذه الطوائف كونت لنفسها جيوشاً لعبت أدواراً في مجال الحرب والسياسة، وتشرح مذاهبها وأفكارها كما هو الحال بالنسبة للطائفة الاسماعيلية التي عملت على التأثير للدولة الفاطمية، ونشر الفكر الإسماعيلي.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ص 424.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 100.

<sup>3</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 105.

<sup>4</sup> رامي إبراهيم محمود، محاولات اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي، من قبل جماعة الحشاشين، مجلة دراسات بيت المقدس، العدد: 31456، (د. م)، 2021م، ص 239-252.

## المبحث الثالث: مع سلاجقة الروم (صلاح الدين وقلج أرسلان)

بدأت العلاقات بين الطرفين صلاح الدين وقلج أرسلان الثاني 550هـ-588هـ / 1155م-1192م<sup>1</sup>، سلطان سلاجقة الروم<sup>2</sup>، عند نجاح هذا الأخير في معركة ميريو كفالون 581هـ / 1176م، وانتصاره على البيزنطيين، فسعى إلى توسيع نفوذه نحو الجنوب وضم كل من رعبان<sup>3</sup> وكيسوم<sup>4</sup>، وأراد التدخل في شؤون بلاد الشام، مستغلا توتر العلاقات بين صلاح الدين وصلاح اسماعيل، وفي ظل ازدياد قوة السلطان الناصر خشى قلج أرسلان من توسعته في منطقة الجزيرة، فأراد أن يكون الملك الصالح بينه وبين صلاح الدين، ولكي يغطي عن أطماعه بالتوسع على حساب أملاك المسلمين، قام بإرسال الرسول إلى دمشق، اجتمع بصلاح الدين وطلب منه الحصنين "رعبان وكيسوم" بحجة أنهما كانا من أملاك سلاجقة الروم سابقا، واضطر والده مسعود أن يتنازل عنهما لنور الدين محمود<sup>5</sup>.

لم يعجب السلطان صلاح الدين ذلك، وأغلظ له في الرد، وتوعد صاحبه، فعاد الرسول، وأخبر قلج أرسلان، فغضب وحاصر رعبان، ولما بلغ ذلك إلى مسامع السلطان سير تقي الدين عمر في ثماني مئة فارس، ويقول آخرون عشرون ألف فارس، وتقدمت الجيوش الأيوبية ووصلت المعسكر السلجوقي فانقضوا عليهم، وأسروا كثيرا منهم، وقام تقي الدين بتسريحهم إلى بلادهم، فتركوا خيامهم ورجعوا خائبين إلى بلادهم مهزومين سنة 575هـ / 1179م<sup>6</sup>.

يبدو أن الصراع لم يتوقف، فظلت العلاقات متوترة بين الطرفين، وقد نشب نزاع آخر سنة 576هـ / 1180م، والسبب مشاكل عائلية، حيث أن السلطان السلجوقي قام بتزويج ابنته بصاحب حصن كيفا، ومنحه عددا من الحصون المجاورة لبلاده كمهر، ولكن نور الدين محمد أحب مغنية بعد مدة، وتزوجها وأعرض عن زوجته الأولى، فبكت إلى أبيها تشكوه، فبعث إليه بأن يحسن عشرتها، فلم يلتفت نور الدين إليه، حينها قرر قلج أرسلان القيام بحملة عسكرية ضده لتأديبه واسترجاع الحصون التي منحها إياه، فقرر نور الدين الاستعانة بصلاح الدين<sup>7</sup>.

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2002، ص161.

<sup>2</sup> قلج أرسلان: هو أول سلجوقي أناضولي اتخذ لنفسه لقب سلطان في المسكوكات... انظر: أسد رستم، الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، دار المكشوفة، ط1، بيروت، 1956م، ج2، ص157.

<sup>3</sup> رعبان: بفتح أوله وسكون ثانيه، وباء موحدة، وآخره نون: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم، وهي قلعة تحت جبل خربتها الزلزلة سنة 340هـ، فأخذ سيف الدولة في بنائها. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج3، ص51.

<sup>4</sup> كيسوم: بالسین المهمله، وهو الكثير من الحشيش، يقال: روضة أكسوم ويكسوم، وكيسوم، هي قرية مستطيلة الشكل من أعمال سميساط، ولها عرض صالح وفيها سوق ودكاكين وافرة، وحصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شبت تحصن فيها من المأمون حتى طفر به عبد الله بن طاهر فأخذه منه. انظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص497.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ سلاجقة الروم، السابق، ص199.

<sup>6</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص31، 32. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص79. ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص102. شاهنشاه، المصدر السابق، ص18، 19.

<sup>7</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة، المرجع السابق، ص200.

قام صلاح الدين بإرسال رسالة إلى قلعج أرسلان يطلب منه التراجع عن قراره ضد إمارة كيفا، قلعج أرسلان توضيح موقفه لصلاح الدين بأنه يريد تأديبه لما فعله مع ابنته، ودارت مراسلات بين الطرفين بدون نتيجة، لأن صلاح الدين كان متمسكا برأيه، فتوجه صلاح الدين بجيشه إلى الأناضول لإيقاف قلعج أرسلان الثاني عن حده، التحق به نور الدين محمد، ووصل إلى رعبان، ولما سمع تلجج أرسلان بذلك أرسل إليه أحد كبار أمراء "اختيار الدين بن عفراس" ليشرح له الموقف.<sup>1</sup>

في الأخير اجتمع الأطراف الثلاثة في شهر جمادى الأولى، وبعد مفاوضات عديدة تمسك صلاح الدين بوجهته أو بوجهة نظره، وقام بتهديد قلعج أرسلان بالزحف على ملطية وبقية بلاد السلاجقة، لكن إصرار قلعج أرسلان على تأديب نور الدين كان قويا، وأعطى لصلاح الدين مبررات دينية أدت في الأخير إلى تغيير موقف السلطان واقتناعه بوجهة نظر قلعج أرسلان، مقابل شروط: على أن يطلق المغنية بعد سنة، أن يدخل جميع أمراء الموصل وديار بكر في هذا الصلح.

واتفق الطرفان على هامش المباحثات، بمساعدة السلطان للسلاجقة في حرهم ضد الأرمين، بدليل أنه هاجم بلاد الأرمين بعد توقيع الصلح معهم مباشرة، وقبل عودته إلى بلاد الشام.<sup>2</sup> يقول ابن شداد:<sup>3</sup> لما عاد السلطان إلى مصر، وصله رسول قلعج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الأرمين، فاستقل نحو ابن لاون لنصرة قلعج أرسلان، ونزل وحصار، وأخذ عسكر حلب، لأنه اشترطها في الصلح، ودخل في صلح قلعج أرسلان والمواصلة وديار بكر، وكان ذلك على نهر سبخة وهو نهر يرمي إلى الفرات، وسار السلطان نحو دمشق.

لا يخفى عنا أن صلاح الدين كان له علاقات مع البيزنطيين وهو ما سنتطرق إلى ذكره في الفصل الموالي

أما الإمبراطور البيزنطي، فقد اتبع سياسة مزدوجة، فقام بإرسال بعثة بيزنطية إلى ألمانيا لإعداد التدابير اللازمة، لاجتياز الحملة الأراضية البيزنطية، وفي نفس الوقت وبسبب مخاوفه سعى لمخالفة صلاح الدين ضد كل من فريدريك بربروس، وقلجج أرسلان الثاني فتعهد له أنه لن يسمح للقوات الصليبية بالعبور إلى بلاده، وفي المقابل تعهد صلاح الدين بوضع الأماكن المقدسة النصرانية في بلاد الشام تحت رعاية رجال الدين الأرثوذكس.<sup>4</sup>

خرج فريدريك في 585هـ / 1189م، وعند وصوله إلى القسطنطينية وبالضبط البلقان، أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين يعلمه بوصول ملك الألمان، ويعد ألا يمكنه من عبور بلاده<sup>5</sup>، لكن الإمبراطور البيزنطي نقض عهده لصلاح الدين، بعد ذلك نتيجة الضغط الشديد من طرف الصليبيين، واضطر للسماح للحملة الألمانية باجتياز وعبور

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ السلاجقة، ص 200.

<sup>2</sup> نفسه، ص 201.

<sup>3</sup> النوادر السلطانية واليوسفية، المصدر السابق، ص 44.

<sup>4</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص 93.

<sup>5</sup> ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ج 10، ص 193.

الدردينيل بمساعدة السقف البيزنطية، وذلك مقابل شروط، بأن يؤمن لهم الآخر البيزنطي المأكل والمشرب وغيرها...<sup>1</sup> كان ذلك سنة 587هـ/ 1190م.

وجد قلعج أرسلان الثاني نفسه بين قوتين أولهما: صلاح الدين الأيوبي والإمبراطور البيزنطي إسحق أنجيلوس من جهة، ما أدى إلى تحالف السلطان السلجوقي مع الإمبراطور الألماني فريديريك بربروس، حيث بدأت بوادر هذه التحالفات لما أرسل الغرب الأوروبي حملة صليبية ثالثة، بعد نجاح صلاح الدين الأيوبي في تحرير بيت المقدس من أيدي الصليبيين، وسيتم معالجة هذه النقطة فيما يلي من صفحات هذا البحث، لما جاءت الحملة الثالثة كان بربروس أحد الملوك المشاركين فيها.<sup>2</sup>

مهد هذا الأخير حملته، فقام بإرسال رسائل إلى الأمراء الذين سيحتاز بلادهم، مخبراً إياهم بأنه يزعم على القيام بحملة صليبية على فلسطين، ويريد منهم المساعدة في عبور بلادهم، ومن بين هؤلاء الأمراء قلعج أرسلان، وإسحاق الثاني الإمبراطور البيزنطي، وأيضاً صلاح الدين الأيوبي، يطلب منه أن يعيد له كامل فلسطين، جاء رد قال أرسلان بالقبول على عكس رد صلاح الدين الذي اتسم بالدماثة على حد تعبير الدكتور طقوش، فقد رد بأن يطلق سراح الأسرى الصليبيين، وأن يعيد الأديرة اللاتينية بفلسطين إلى أصحابها، لا شيء غير ذلك.<sup>3</sup>

ويذكر ابن الأثير<sup>4</sup> أن السلطان السلجوقي، تصدى للحملة لكنه لم يستطع الصمود في وجه تفرق أولاده، حيث أنه قسم بلاده على أولاده مما أحدث مشاكل وتفرق أولاده، فنزلوا قونية وأرسلوا إلى قلعج أرسلان، أي قوات فريديريك أرسلوا إليه هدية وقالوا: "ما قصدنا بلادك ولا أردناها، وإنما قصدنا بيت المقدس"، وطلبوا منه أن يأذن لهم بإخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره، فأذن لهم، وأرسل يعتذر لصلاح الدين بالعجز عنهم.<sup>5</sup>

عبر ستيفن رسيمن<sup>6</sup> عن رأيه حول العلاقة القائمة بين فريديريك بربروس وقلعج أرسلان الثاني حيث أنه قال: "والواضح أن قلعج أرسلان السلطان السلجوقي، لم يكن ينوي برغم ما بذله من وعد أن يسمح للصليبيين باجتياز بلاده في هدوء، وحينما راعه ضخامة الجيش الألماني لم يفعل أكثر من أن يطوف بأطرافه، فيخطف الشاردين، ويعترض طريق الذين يلتمسون المؤونة.

<sup>1</sup> Vasilis, History of the Byzantine Empire, vol 2, The university of Wisconsin press, Canada, 1952, pp: 445-447.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيون، السابق، ص93.

<sup>3</sup> نفسه، ص93.

<sup>4</sup> ابن الأثير، الكامل، ج10، السابق، ص195. ابن واصل، مفرج الكروب، السابق، ج2، ص319، 321. للمزيد انظر: أخبار سلاجقة الروم مختصر "سلجوقنامه"، تر: محمد السعيد جمال الدين، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007، ص12.

<sup>5</sup> المصدر السابق، ص195. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص319، 321.

<sup>6</sup> تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريفي، دار الثقافة، لبنان، 1997م، ج3، ق1، ص38.

ويرجع هذا التناقض بين المؤرخين العرب والغربيين في الواقع إلى السلطان السلجوقي الذي تميز بالازدواجية، وفسر سهيل طقوش<sup>1</sup> ذلك بقوله: ولعل ذلك راجع إلى الحنكة السياسية التي امتاز بها ومواقفه المتقلبة التي اتصف بها، فقد أراد مقاومة كل من الجانبين البيزنطي والأيوبي، اللذان كان لكل منهما أهداف توسعية، فالجانب البيزنطي أراد التوسع نظراً للمطامع السياسية، وصلاح الدين من جهة أخرى الذي شكل خطراً كبيراً عليه بسبب الانتصارات التي حققها، فأصبح بذلك قوه يخشاها الجميع، لذلك احتس منه، أما سياسة اسحاق الثاني فقد عمل على تحجيم قوة السلاحقة، لذلك فمن البديهي أن يتحالف مع الألمان، ولم يدخل معهم في تحالفات إلا ما وعد به الإمبراطور الألماني بمساعدته أثناء عبوره بلاده، ومن جهة أخرى أراد أن يبرر موقفه كمسلم لمقاومة الصليبيين والظهور بمظهر المدافع عن الإسلام، والاقتداء بأسلافه، وهذا ما يسمى بالازدواجية في مواقفه السياسية.<sup>2</sup>

وكتقييم لدور صلاح الدين السياسي مع سلاحقة الروم، كان التصادم بينهم في ظروف داخلية وسياسية خارجية متناقضة سواء في الجانب الأيوبي، فنجد أن صلاح الدين كان منهمكاً في أمور دولته، والصراع على السلطة بين أمراء الصالح اسماعيل، أما الجانب السلجوقي ونعني به السلطان قلع أرسلان سعى إلى توسيع نفوذه، في ظل الأوضاع المتأزمة التي كانت تمر بها دولته جراء تقسيم بلاده بين أبنائه، فرأى كل من الجانبين الاستعانة بالقوات الخارجية وعقد المعاهدات بذلكاء.

تميز صلاح الدين بشجاعته وصلابته السياسية مما جعلته قائداً يخافه أمراء الإسلام والعالم المسيحي الصليبي، وجراء تقسيم بلاد سلاحقة الروم بين أبناء السلطان السلجوقي أدرك هذا الأخير أنه ارتكب خطأ فادحاً، فقد أدى هذا القرار إلى نشوب موجة من الصراع الأسري بين أبنائه، فأراد هذا الأخير الاستعانة بصلاح الدين الذي لب نداءه.

استقبل صلاح الدين الأيوبي السلطان السلجوقي أحسن استقبال، وكان سبب استنجاهه به، أنه أراد استرجاع ملطية من ابنه معز الدين قيصر شاه، ولكنه فشل في استردادها، ليتوفى ثلج أرسلان فيما بعد.<sup>3</sup>

لعب صلاح الدين الأيوبي في علاقته مع سلاحقة الروم دوراً سياسياً بامتياز، فبرز كبطل مدافع عن العالم الإسلامي، وقوة يخشاها جميع خصومه.

<sup>1</sup> تاريخ السلاحقة، المرجع السابق، ص 206.

<sup>2</sup> نفسه، ص 207.

<sup>3</sup> نفسه، ص 209.

### المبحث الرابع: تعقيب على علاقة صلاح الدين مع القوى الإسلامية:

1. بالنسبة للخلافة العباسية، أكمل صلاح الدين العلاقات الحسنة التي كانت في عهد نور الدين محمود، وعلى العموم امتازت هذه العلاقات بالولاء والصدقة والمحبة والثقة المتبادلة بين صلاح الدين والخليفة المستضيء بالله.
  - كانت رسل صلاح الدين تنبأ الخلافة بكل المستجدات، حيث أن صلاح الدين حرص على إطلاع الخليفة بكل فتوحه.
  - الثقة التي منحتها الخلافة لصلاح الدين جعلتها تستجيب لطلباته بالتقليدات والتشريفات.
  - استمرت العلاقات الحسنة بين الطرفين في عهد الخليفة الناصر لدين الله 575هـ-622هـ/1180م-1225م، خاصة بعد سعي صلاح الدين إلى توحيد راية وصفوف المسلمين تحت جبهة واحدة، والخطبة للخلافة في جل فتوحاته، أدى إلى تقوية روابط الود بينهما.
  - ومن الجدير بالذكر أن السلطان الناصر لجأ إلى التأييد الروحي للخلافة، ولم يعتمد عليها عسكرياً، من أجل الفصل في المنازعات الداخلية واضفاء الشرعية لفتوحاته.
  - رغم الصلات وودية العلاقات الحسنة بين صلاح الدين والخليفة الناصر، لكن هذا لا يعني أنها كانت مستمرة حيث تخللتها فترات من الفتور، حيث بدأت الحساسيات بينهما عندما بعث صلاح الدين للخليفة برسول لا يليق بمقام الخلافة، فاغتاظ الخليفة الناصر واعتبره اساءت أدب له.
  - يبدو أن صلاح الدين لم يقصد الإساءة فأرسل يعتذر له، وسرعان ما توترت العلاقات من جديد وذلك بسبب تلقب السلطان صلاح الدين بلقب الناصر، وهو لقب الخليفة مع علمه بذلك، وازدادت الأمور سوءاً لأن الأطراف أو الفئات المعادية لصلاح الدين وحكمه، كانت تنتظر في مثل هكذا فرص لكي تثور عليه، وتتدخل من أجل إسقاط الشرعية على حكمه.
  - كانت العلاقات تزداد سوءاً، وأرسل الخليفة يتهدد السلطان بسحب الخلافة منه، لولا أن أرسل صلاح الدين كتاباً يعتذر للخليفة على تقصيره بسبب انشغاله بأمر الحرب، وأن هذا اللقب قد لقب به أيام الخليفة المستضيء بالله
  - يبدو أن هناك أسباب خفية أدت إلى توتر العلاقات بينهما، ذلك أن الانتصارات التي حققها صلاح الدين غطت نوعاً ما على الخلافة، مما أدى إلى استياء الناصر لدين الله فأحس بنوع من الغيرة من نجاحاته.
  - على الرغم من كل المحاولات الفاشلة لتعكير صفو هذه العلاقات الطيبة بينهما، إلا أن السلطان صلاح الدين استطاع بفضل حنكته وذكائه من القضاء على الحركات المعادية له، والتي تريد تحطيمه، وواصل إرسال الرسل إلى الخلافة، وطمأنته بأن ولائه خالص وأنه لا شيء يعلو فوق الخلافة.
2. واصل صلاح الدين نهجه في القضاء على الحركات والطوائف المنفصلة، التي تنادي بالثورة وأعمال الشغب، وتحرض على الفساد المذهبي والأخلاقي، مما يؤدي إلى كثرة الفتن وحدوث الانشقاقات في صفوف المسلمين، حيث خلال

سنتين حكمه ظهرت إلى العلم طائفة انتقامية همجية معادية لصلاح الدين والمذهب السني، إلا وهي الطائفة الإسماعيلية أو الحشاشية أو الحشاشون.

- نعتت الحشاشية على السلطان الناصر، لإسقاطه للحكم الفاطمي في مصر واستبدال مذهبهم الشيعي بالمذهب السني، عزم هؤلاء المتمردين على اغتياله، فكانت أولى المحاولات لقتل السلطان استعانة رئيسهم حسن الصباح بعمارة اليمني ورفقائه للقضاء عليه مقابل هدايا معتبرة، كان صلاح الدين في تلك الأثناء متواجدا في حلب لحصارها، ودخل هؤلاء واحتلوا بالعسكر، وتسلى أحد منهم إلى باب خيمة السلطان، فلولا أن اعترض طريقه أمير جندار لكان قد قضى عليه "السلطان".
- كرر الحشاشون المحاولة بعد أن باءت محاولتهم الأخيرة بالفشل، وكانت هذه المحاولة سنتين 570هـ / 1175م لكن المحاولة الثانية كانت أخطر ونجى منها السلطان بأعجوبة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على معرفة هؤلاء الحشيشية للفنون القتالية واثقائهم للعمل العسكري، فليس من السهل على أي كان اقتحام الحصون المنيعة، والصفوف الإسلامية تحت قيادة السلطان، لولا أن يكون الشخص لديه خبرة كافية بأمور الحرب.
- انتقم صلاح الدين من هؤلاء، فكانوا كلما هاجموا ثأر منهم، فكان كلما تعرض لهجوم، تصرف حيال هذا الأمر حيث ضربهم بالمخانيق لهجومهم عليه لتأديبهم ووضعهم عند حدهم.
- استعانة صلاح الدين بالإسماعيلية، حيث طلب من قائدهم قتل ريتشارد قلب الأسد الإنجليزي، وكونراد صاحب صور، ووعدته بدفع مبلغ من المال له، لكن سنان خشى أن يخلص صلاح الدين من أعدائه الصليبيين ويتفرغ لتصفيته، فقتل كونراد وعدل عن قتل ريتشارد.
- يرجع هذا العداوة بالدرجة الأولى إلى الاختلاف المذهبي والعقائدي، حيث أن هذه الطائفة حقدت على السلطان لأنه أطاح بالخلافة الفاطمية التي تعتبر مركز وقلب نشاطها ونشر مذهبها الشيعي.
- من بين القوى الإسلامية التي تم التطرق لها في هذا الفصل، والتي كانت لها علاقات مع صلاح الدين سلاجقة الروم بقياده قلب أرسلان الثاني 550هـ / 588هـ / 1155م 1192م، بعد الانتصار الذي أحرزه على البيزنطيين في معركة ميريو كفالون الشهيرة 581هـ / 1176م.
- توسعت أطماع سلطان سلاجقة الروم بعد هذه المعركة، وسعى إلى توسيع نفوذه وتدخل في ممتلكات صلاح الدين بالشام، وتحجج أنها كانت تابعة لأملاك سلاجقة الروم، واضطر والده مسعود إلى التنازلي عنها لنور الدين محمود.
- جاء الرد من صلاح الدين عنيف، وكانت بينهم مناوشات انتهت بعودة العنصر السلجوقي يجر أذيال الهزيمة
- عادت المشاكل لتعكر صفو العلاقات من جديد بسبب مشاكل عائلية، فحدثت مراسلات بين الطرفين، وكادت أن تنشأ الحرب بينهما، وحصل الصلح بناء على الشروط السابق ذكرها.



- استمرت العلاقات مدة لاسيما بعد الحملة الألمانية التي اجتازت الأراضي السلجوقية، وقد تعهد قبل ذلك للسلطان بأنه لن يسمح بذلك، لكنه نقض عهده بحجة الضغط الذي تعرض له من طرف الصليبيين، ضعفت دوله قلعج أرسلان بعد ذلك وهذا نتيجة تقسيم أملاكه بين أولاده.
- هذه العلاقات تبين أهمية الحدود الجغرافية بين الدول، لاسيما المجاورة، وضرورة المحافظة على مبدأ الدبلوماسية، والسياسة التي تقتضي استخدام كافة الوسائل ما عدا الحرب، الصلابة السياسية والمواقف التي جعلت من السلطان الناصر قائدا يستطيع التحكم في أمور دولته، والحفاظ على وحدتها وكيانها بين القوى الإسلامية المجاورة لحدود دولته.
- نلاحظ أن صلاح الدين اتبع في كل مرة شكلا من أشكال الحرب، مع الخلافة قضى على الفتن بإرسال مبعوثيه إلى دار الخلافة، وإصراره على إظهار ولائه لهم، حتى يقضي على كل المحاولات التي من شأنها التأثير بالسلب على سيرورة العلاقات.
- أما الطوائف المعادية (الحشاشون)، استخدم معهم الأسلوب العسكري لقمع تحركاتهم، حيث أنه صوبهم إلى خيمته واختلاطهم بجيشه جعله يدرك خطرهم على استمرارية دولته، فلجأ إلى القتال للحد من تطاولاتهم، أما مع السلاجقة فتارة يستعين بهم دبلوماسيا، وتارة يطبق عليهم الحل العسكري، وبهذه الاجراءات حافظ صلاح الدين على جبهته الإسلامية من الأخطار الداخلية والخارجية كحد سواء.

# الفصل الثالث

## الفصل الثالث: الدبلوماسية الأيوبية مع الإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية.

## أولاً: الإمارات الصليبية:

## تمهيد

مرت العلاقات بين صلاح الدين والصليبيين حسب ما تناوله المؤرخون على مرحلتين أساسيتين: المرحلة الأولى امتدت من سنة 570هـ-582هـ / 1174م-1186م، وتميزت هذه المرحلة بأن سلطان الناصر لم يكن متفرغاً لمواجهة الصليبيين، لقد وجه كل طاقته وجهوده لحل المشاكل الداخلية وتوحيد الجبهة الإسلامية تحت راية واحدة، وإدخال القوى الإسلامية المبعثرة في الشام والحزيرة تحت سيادته، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ومن خلفه جبهة قوية متحدة.<sup>1</sup>

وغلبت على هذه المرحلة الطابع الدفاعي: إما لحماية أملاك المسلمين من تعديات الفرنج، وإما ليحول بينهم وبين مساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية المتحالفة معهم، إما لحفظ طرق تحركاته بين بلاد الشام ومصر<sup>2</sup>، ويضيف سعيد عاشور<sup>3</sup>: "أن هذه القوى الانفصالية أعمتها أطماعها فسعت للتحالف مع الصليبيين ضد صلاح الدين، فكان لابد لصلاح الدين من ترتيب أموره بالداخل استعداداً لمعاركه مع الصليبيين.

أما الدور الثاني أو المرحلة الثانية ضد الصليبيين فتمتد ما بين سنة 583هـ-588هـ / 1186م-1193م، وفيها كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل، فانصرف بكل طاقاته إلى الجهاد، وحقق الانتصارات الضخمة التي خلدت ذكره في التاريخ.

<sup>1</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، المرجع السابق، ص47. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، 1986م، ص85. حمدي عبد المنعم محمد حسين، تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص61.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، السابق، ص115.

<sup>3</sup> سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام، المرجع السابق، ص47.

## المبحث الأول: الدور الأول من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين

(570هـ-582هـ / 1174م-1186م)

تعتبر هذه المرحلة بمثابة المرحلة الدفاعية لصلاح الدين، التي مهد من خلالها للحرب على الفرنج، وكان في مستهل هذه المرحلة يدرك تماما مدى أهمية مصر لدى الغرب المسيحي وأنهم يقدرون أهميتها مثله تماما، فكانت محل أطماعهم، فكان لابد عليه من تحسينها لكي لا يقوم هؤلاء بحملة كبرى لغزوها، فمهد إلى بناء سلسلة من التحصينات في ثغور مصر البحرية، وكذلك في صحراء سيناء.<sup>1</sup>

طوق صلاح الدين كل من القاهرة والفسطاط بسور واحد لتسهيل الدفاع عنهما لحماية واحدة، وأدخل فيها القواطع والعسكر، وبنى قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقطم وانتهى به إلى أعلى مصر بروج وصلها بالبرج الأعظم، وبنى قلعة على الجبل وأعطاهما من حقها من أحكام العمل، وقطع الخندق، وهناك حفر في رأس الجبل بئرا ينزل فيه بالدرج المنحوتة في الجبل إلى المعين<sup>2</sup>، أي بهدف تسهيل تزويد الناس بالماء.

بنى صلاح الدين السور على القاهرة ووصله بسور مصر من الخارج باب البحر إلى الكوم الأحمر، وتولى عمارته الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، وأنشأ بجوار مسجد أو جامع المقس برجا كبيرا عرف بقلعة المقس.<sup>3</sup>

لم تقف جهود صلاح الدين في تحصين مصر عند مدينة القاهرة فقط، فحرص على تطبيق وحماية مختلف المدن التي تعد محطة أنظار الصليبيين وخاصة دمياط والإسكندرية<sup>4</sup>، فبنى سور دمياط وذرعه أربعة آلاف وستمائة ذراع، وبنى أيضا برج بها<sup>5</sup>، وذلك سنة 577هـ/1182م، وقام ببناء برجين وشدهما بسلسلة ضخمة، وبعد ذلك قام ببناء خندق بالضبط سنة 588هـ/1192م.<sup>6</sup>

قام أيضا صلاح الدين بإنشاء أماكن للحراسة في شبه جزيرة سيناء، وهي منطقة صحراوية تفصل بين مصر ومملكة بيت المقدس، وسلسلة من القلاع أشهرها قلعة الجندي في سيناء، على طريق أيلة وزودها بالصهاريج لحفظ الماء<sup>7</sup>، ودخل سلطان الناصر قلعة أيلة وأنشأ مراكب مفصلة سار بها من القاهرة، وأقام المراكب وأصلحها وطرحها في البحر وشحنها

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيون، السابق، ص 116.

<sup>2</sup> العماد الأصفهاني، سنا البرق الشامي، ص 119.

<sup>3</sup> المقريري، الخطط المقريرية، المصدر السابق، ج 4، ص 68، 69.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيون، السابق، ص 116.

<sup>5</sup> المقريري، السلوك، ج 1، ص 187.

<sup>6</sup> المقريري، الخطط، ج 1، ص 601.

<sup>7</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيون، ص 117.

بالمقاتلين والأسلحة، وعندما فتحها قتل من بها من الفرنج، وأسكنه بها جماعة من ثقاته، وزودهم بالعتاد من سلاح وغيره وعاد إلى القاهرة.<sup>1</sup>

وبهذه الاجراءات يكون صلاح الدين قد قام بتأمين الطرق وحماية تحركاته، تميزت هذه الفترة بكثرة المعاهدات والتي كانت من العوامل المهمة التي ساعدته على بث التفرقة بين صفوف الصليبيين وإضعاف قوتهم<sup>2</sup>، نرى أن صلاح الدين اتبع استراتيجية لمواجهة الصليبيين، من خلال زيادة الحصون والعمل على تحصين مناطق نفوذه، سواء أكان ذلك من خلال زيادة قوته العسكرية، أو من خلال بناء الحصون والقلاع التي من شأنها أن تؤمن له حماية أفضل ولمراقبة تحركات العدو.

أيضا فيما يخص المعاهدات والاتفاقيات، فهي على الأغلب من شأنها أن تؤثر على إمدادات العدو الصليبي، كما أنها تؤثر على صفو الجبهة الإسلامية المتحدة على حد سواء، وهنا دليل واضح على وعي صلاح الدين السياسي، ومدى تفتنه بمختلف جوانب دولته، حيث كان ملما بالأخطار الآتية سواء من الداخل أو الخارج، وكل هذه الحنكة والدكاء الدبلوماسي برز فيه منذ الصغر، وسقله من خلال الحروب التي خاضها، منذ احتكاكه الأول بالصليبيين أيام عماد الدين زنكي، معزز خبرته في هذا المجال.

أما بالنسبة لأوضاع الصليبيين فبعد صراع على من سيكون وريث العرش ومن يتولى الوصاية على الملك الصغير لمملكة بيت المقدس بعد وفاة الملك عموري الأول، وذلك سنة 569هـ/1174م، وتولى ابنه المريض بالجذام "بلدوين الرابع" الذي لم يتعدى عمره الثالثة عشرة<sup>3</sup>، وبمحكم مرضه، غالبا ما كان يكلف أمراءه لتسيير شؤون مملكته، وبعد المؤامرات التي حيكت من قبل ريموند الثالث صاحب طرابلس ميلان دي بلانسي الذي تولى شؤون الحكم، فانقلب ضده وقتله سنة 569هـ/1174م، وأصبح ريموند الثالث وصيا على مملكة بيت المقدس.<sup>4</sup>

انتهز هذا الأخير فرصة انشغال صلاح الدين في أمور دولته أي في بلاد الشام، حيث أن أول ملتزم به هو إيقاف أو وضع حد لقوة صلاح الدين، حيث كان يهدف لمنعه من ضم حلب.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> المقريري، الخطط، السابق، ج1، ص521.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص115.

<sup>3</sup> وليم الصوري، الحروب الصليبية، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، ج4، ص176.

<sup>4</sup> نفسه، ص179، 180.

<sup>5</sup> ستيفن رنسيومان، تاريخ الحملات الصليبية، تر: نور الدين خليل، ج2، ص466.

يضيف وليم الصوري<sup>1</sup>: "وكانت هذه خطة حكيمة بسبب القلق الذي ييثره في نفوسنا أي صلاح الدين كان يزداد قوة وسلطة مما يهدد ويشكل خطراً على مصالح المملكة الصليبية"، ويبرر وليم موقفه هذا عن صلاح الدين بقوله: "ذلك لأنه كان رجلاً حكيماً الرأي بطلاً في الحرب وكرهماً فوق حد الكرم".

على الرغم من العداء الصليبي اتجاه القوى الإسلامية بقيادة صلاح الدين، إلا أنه عرف بكرمه وأخلاقه وشجاعته التي تعدت حدود دولته إلى بقية أنحاء العالم، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أنه كان مثلاً وقدوة يحتذى بها فقد شهد له بما أعداؤه قبل أهله.

ولما علم الملك بلدوين الرابع أن أرض دمشق قد حلت من الجيش، أن صلاح الدين كان منشغلاً في منطقته حلب، جمع طائفة من فرسانه وعبر بهم نهر الأردن، ومروا على الغابة القريبة من مدينته بانياس، وقاموا بإحراق المحاصيل الزراعية وغزو مدينة دمشق وحصلوا على غنائم كثيرة كان ذلك سنة 570هـ/1175م.<sup>2</sup>

واصل الصليبيون غاراتهم على أملاك صلاح الدين، ففي نفس السنة، وفي الوقت الذي لا يزال فيه صلاح الدين منشغلاً بأمور حلب، قام الملك بلدوين الرابع باستدعاء كبار رجال المملكة، مع فرسانه، وقاموا بالهجوم ثانية على صلاح الدين.<sup>3</sup>

توفي مونتيفرات ولم يمض على زواجه سوى ثلاثة أشهر، بسبب مرض عضال أصابه، وترك زوجته حاملاً والتي أنجبت بلدوين، لكنه توفي هو الآخر<sup>4</sup>، في ظل هذه الأوضاع المشحونة تراجع البيزنطيون عن التحالف مع بلدوين لأنهم شككوا في جدية الصليبيين للاشتراك في حملة لغزو مصر، فانسحبوا عائدين إلى القسطنطينية.<sup>5</sup>

قام الصليبيون بالإغارة على مدينتي حمص وحماة، وبعدها حارم، ولما سمع صلاح الدين بهذا الأمر جهز جيوشه، وخشي الصليبيون أن يستنجد الحلبيون به، تفاوضهم الملك الصالح على فك الحصار مقابل دفع مبلغ من المال، كما حذرهم بأنه سيسلم المدينة إلى صلاح الدين، فاضطر الصليبيون لفك الحصار عن حارم بعد أن أضعوا كثيراً من الجهد والوقت للاستلاء عليها.<sup>6</sup>

قرر صلاح الدين القيام بهجوم مفاجئ من الساحل إلى داخل فلسطين يوم الأربعاء 29 جمادى الأولى 573هـ/1177م، في معركة سميت "بمعركة الرملة"، وانتشر جيشه على معاقل الصليبيين، وقاموا بقتل عدد كبير منهم، ورحل

<sup>1</sup> المصدر السابق، ج4، ص184. ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص68.

<sup>2</sup> وليم الصوري، المرجع السابق، ج4، ص193.

<sup>3</sup> نفسه، ج4، ص194.

<sup>4</sup> يعقوب القيتري، المصدر السابق، ص150.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين والمماليك، المرجع السابق، ص121.

<sup>6</sup> نفسه، ص123.

الناصر بعساكره فنزل عسقلان، وتوسط السلطان البلاد، وتمكن من الدخول إلى بيت المقدس، ونتيجة لتفريق صفوف الجيوش الإسلامية انتهز رينودي شاتيون طريقه، بينما كان يحاول العبور ولم يجد صلاح الدين من حل سوى أن يجارب بمن معه من قوات، فهزم شر هزيمة.<sup>1</sup>

عقدت الهدنة بين صلاح الدين والفرنج، لأن صلاح الدين لم يشأ القتال على جبهتين أي ضد الزنكيين والصليبيين معاً، وأطلق صلاح الدين بموجب هذه الهدنة سراح الأسرى الصليبيين<sup>2</sup>، من بينهم "رينو دي شاتيون"<sup>3</sup>.

نقض الصليبيون الهدنة بعد عام، وفي الوقت الذي كان النزاع قائماً بين صلاح الدين والزنكيين هاجموا إقليم البقاع، وتعرض ريموند الثالث للهزيمة على يد ابن المقدم أمير بعلبك، ولكن الجيشين اجتمعا سوياً، واصطدم بشمس الدولة توران شاه أخ صلاح الدين ونائبه في دمشق، عند البقاع وكان قد خرج لنجدة بعلبك، لكن اللقاء لم يحسم، ولما كاد صلاح الدين يقترب من الشمال، قام الصليبيون بالانسحاب من المنطقة، وعاد الملك الناصر إلى مصر، تاركاً أخاه توران شاه في دمشق.<sup>4</sup>

### • مشكل ورثة العرش:

يبدو أن أحوال مملكة بيت المقدس لم تكن أفضل حال من أحوال المسلمين، حيث واجهت مشاكل داخلية إذ لم يكن الملك بلدوين الرابع قادراً على الزواج بسبب مرضه الذي أخذ يزداد يوماً بعد يوم، مما أثار مشكلة وراثته العرش، حيث تخلى ريموند الثالث عن الوصاية، في عام 573هـ/1177م، لما بلغ الملك بلدوين سن الرشد<sup>5</sup>، ونظراً لعدم تمكنه من الزواج، قدم أختيه سبيلا الكبرى وإيزابيلا الصغرى للزواج<sup>6</sup>، فقدم سبيلا للزواج بوليم طويل السيف، مركز مونتيفرات، والأخرى لهمفري.<sup>7</sup>

بعد الهزيمة المريرة لصلاح الدين تعلم دروساً عديدة من بينها:

- ألا يقدم على أي عمل عسكري من شأنه أن يضعه وجهاً لوجه مع العدو الصليبي، إلا وقد استكمل بناء الجبهة الإسلامية التي تعينه لمحاربة الصليبيين.

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 85. ابن واصل، مفرج الكرب، ج 2، ص 58، 59.

<sup>2</sup> ستيفن رنسيان، المرجع السابق، ج 2، ص 469.

<sup>3</sup> وليم الصوري، المصدر السابق، ج 4، ص 192.

<sup>4</sup> نفسه، ص 195. رنسيان، المرجع السابق، ج 2، ص 469.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 448.

<sup>6</sup> يعقوب القيتي، تاريخ بيت المقدس، تج: سعيد البشاوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط 1، فلسطين، 1998م، ص 147.

<sup>7</sup> وليم الصوري، المصدر السابق، ص 198.

- انتهج صلاح الدين سياسة حكيمة لإسكات الأفواه المعارضة لحكمه، والتي تنتظر الفرصة الملائمة للانقلاب عليه، حيث ساهم في إعطاء الهدايا والأموال على الأهالي خاصة المصابين منهم، أخبر أهالي الشام بأنه وصل سالماً إلى مصر حتى يطمئن الناس على نفوسهم، وتمكن في غضون شهرين من إعادة تنظيم قواته العسكرية ومهاجمة الصليبيين في معركة سميت بمعركة تل القاضي.<sup>1</sup>

غادر السلطان مصر متوجهاً نحو دمشق، ووصل إليها يوم 24 شوال 574هـ/ أبريل 1179م، وانشغل صلاح الدين بحصار بعلبك بعد رفض حاكمها محمد بن عبد الملك ابن المقدم التنازل عنها لصالح توران شاه أخ صلاح الدين، فحاصرها السلطان ورحل عنها إلى دمشق في نهاية السنة، وتمادى الأمر إلى أن رضي ابن المقدم وسلم بعلبك إلى أخيه الملك المعظم<sup>2</sup> بعد طلب تعويض عنها.

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان منشغلاً بأمر بعلبك، جهز الصليبيون الفرصة وقاموا ببناء حصن على مخاضة الأحران، وهو بيت يعقوب \_عليه السلام\_، ولما فرغ من أمر بعلبك ووصل إلى دمشق، جعل كل همه في هذا الحصن وعزم على حصاره وتهديمه، وبعد منازلة الفرنج تمكن من هدمه أخيراً<sup>3</sup>، بعد أن طلبوا منه أموالاً مقابل تهديمه.<sup>4</sup>

واصل الفرنج شن الغارات على بلاد المسلمين، ففي شهر ذي القعدة من نفس السنة قام الصليبيون بالهجوم على أملاك المسلمين في دمشق، ولكن صلاح الدين أرسل ابن أخيه فخرشاه، فتصدى لهم وانحزم الفرنج، وقتل في المعركة هانفري أحد ملوك الصليبيين الذي كان يضرب به المثل في الشجاعة والبسالة<sup>5</sup>، وخلف موته حصرة في قلوب الصليبيين، ودفن في احتفال مهيب في قلعته الشهيرة.<sup>6</sup>

بعد هذه الهزيمة التي تلقاها بلدوين الرابع، أرسل يطلب الهدنة من صلاح الدين، الذي سرعان ما وافق، فلم يكن الطرفان على استعداد لمزيد من الحروب<sup>7</sup>، نظراً للجفاف الشديد الذي حل بالشام في فصل الشتاء، وانتشرت المجاعة والوباء حتى مات من الخلق ما لا يحصى.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 126.

<sup>2</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 71.

<sup>3</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 92-96. ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 72.

<sup>4</sup> ابن شاهنشاه، مضمّن الحقائق، المصدر السابق، ص 24.

<sup>5</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 93.

<sup>6</sup> وليم الصوري، المصدر السابق، ج 4، ص 231.

<sup>7</sup> رنسيمان، المصدر السابق، ج 2، ص 479.

<sup>8</sup> ابن شاهنشاه، المصدر السابق، ص 3.



وكانت مدة هذه الهدنة عامين، ووقع عليها الطرفان في شهر ذي الحجة سنة 575هـ/ ماي 1180م.<sup>1</sup>

انقضت الفترة أو الدور الأول من العلاقات الصليبية الأيوبية والتي تميزت بالدفاع أكثر من الهجوم، فقد اعتمد على غارات خاطفة، ومركزة على بعض معاقل الصليبيين، والموافقة على هدنة قصيرة المدى، هذا من أجل التفريغ لبناء الوحدة الإسلامية وتعبئة القوى الإسلامية<sup>2</sup> لصد التمدد الصليبي.

<sup>1</sup> رنسيمان، المصدر السابق، ج2، ص479.

<sup>2</sup> نوري، المرجع السابق، ص282.

## المبحث الثاني: الدور الثاني من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين

(583هـ-588هـ / 1186م-1193م)

## المطلب الأول: الأوضاع التي سبقت معركة حطين.

حافظ صلاح الدين على الهدنة التي وقعها مع الصليبيين، حيث أنه لم يدخل في أي صراع حاسم معهم، لانشغاله بأمور الوحدة الإسلامية التي قضى أكثر من اثني عشرة سنة في سبيل توحيد صفوف المسلمين، ليتمكن أخيراً من تحقيقها، وامتدت من النيل إلى الفرات<sup>1</sup>، فتفرغ للجهاد ضد الصليبيين بعد أن كسب المساندة السياسية والرأي العام لصالحه، ليبرز كبطل للإسلام في سبيل تنفيذ مخططه العظيم<sup>2</sup> ألا وهو القضاء على الوجود الصليبي بالمنطقة وتحرير بيت المقدس.

كان صلاح الدين على علم وخبرة كافيتين، تمكنه من الاطلاع على أوضاع المنطقة، بأنه لا يمكنه القضاء على الصليبيين وطردهم من أراضي الاسلام، إلا بإعادة ترتيب صفوف المسلمين وجمعهم تحت زعامته، بدأ هذا البطل بمصر نظراً لعلمه بأهميتها التاريخية أولاً، والجغرافية والحضارية ثانياً، وقام بتنظيم حكمه فيها، وانصرف إلى الشام وباقي البلدان المجاورة ليتمكن من جمع أكبر عدد من المؤيدين والداعمين تحت أمره لمساعدته وتزويده بالإمكانات الممكنة لتنفيذ مشروعه الأهم بتحرير القدس من محتطفيها وقد عزم على ذلك، وقد كان عندك كلمته ووعده.

لم يشأ صلاح الدين البدء بالحرب وانتهاك الهدنة التي اتفق عليها مع العدو الصليبي سنة 581هـ / 1185م، لكن في نفس الوقت أخذ ينتظر اللحظة المناسبة حتى يزود بذريعة للحرب، إلى أن سنحت له فرصة من ذهب، حيث أن البرنس أرناط قام بانتهاك صريح للهدنة، حيث قام بالإغارة والهجوم على قافلة تجارية ذاهبة من القاهرة إلى دمشق في مستهل سنة 583هـ / 1172م، بعد أن كان حرية النشاط التجاري، وتنقل القوافل المحلية بالسلع شرط من شروط هذه الاتفاقية، فمن المعروف عنه خرقه للمعاهدات عندما تسمح له الفرصة، وعدم اكتراثه بما تلتزمه العهود من قواعد.<sup>3</sup>

شهد العالم الإسلامي تقدماً فكرياً وحضارياً كبيراً على غرار نظيره الغربي، حيث أننا لو تعمقنا في هذه الحادثة وحيثياتها نرى بشكل واضح قمة الاختلاف السامية، والقيامة العليا للسلطان الناصر، فعلى الرغم من امتلاكه للقوة الممكنة وتنظيم أموره من جميع النواحي، إلا أنه لم يبادر للقيام بأي عمل عسكري احتراماً للعهد الذي أمضاه، على عكس البرنس أرناط الذي عبر عن بشاعة وانحطاط المستوى الفكري والحضاري للعالم الغربي آنذاك، فخرق العهود والاتفاقيات من صفات الجبناء، وبهذا بين صلاح الدين للعالم ككل عن نبل أخلاقه، وسامحة دينه. فقام أرناط بفرض

<sup>1</sup> نوري، المرجع السابق، ص 286.<sup>2</sup> Lane look, A History of Egypt, p206.<sup>3</sup> السير جب، هاملتون، المرجع السابق، ص 73.

الإتاوة على القوافل التجارية التي تجتاز الكرك سنة 577هـ/ 1181م، فأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الطرفين الصليبي والإسلامي<sup>1</sup>، ويضيف النوري<sup>2</sup>، عن الأسباب التي دفعت صلاح الدين إلى التأييد بشأن الحرب فقال: "وربما أراد صلاح الدين أن لا يدفع عسكره لقتال لا يعلم نتائجه، فقد تكون عاقبة الحرب وخيمة، لذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب، ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها"، وهذا دليل آخر على الوعي السياسي المتطور لصلاح الدين.

وصف ابن الأثير<sup>3</sup> البرنس أرناط بأنه: "من أعظم الفرنج وأحبهم، أشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرا عليهم"، وهذا ما يفسر اعتدائه وتصرفه الوحشي ضد القافلة الضخمة، فغدر بهم وأخذهم عن آخرهم، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم، فأرسل إليه صلاح الدين يلومه على هذا الفعل الشنيع، فلم يعجبه وامتنع عن الرد، فأقسم صلاح الدين أن يقتله إذا ظفر به.

واصل صلاح الدين بعد هذه الحادثة تقدمه، وأرسل إلى جميع البلاد من الموصل وديار بكر والجزيرة وغيرها، يدعوهم إلى الجهاد، فسار من دمشق قاصدا الكرك، وكان سبب خروجه، أنه سمع أن أرناط يريد الهجوم على الحجاج، فأراد إيقافه وبالفعل تراجع أرناط عن فعله ووصل الحجاج آمين، وحشر صلاح الدين الكرك، وقد أرسل أيضا إلى ولده الأفضل للإغارة على "عكا"<sup>4</sup>.

لكن قبل ذلك كانت الاستعدادات لزواج الأميرة إيزابيلا من هنفري ذي السابعة عشرة من عمره، وكان صلاح الدين محاصرا للقلعة آنذاك التي يقام فيها الزفاف، فاختلطت أصوات وأهازيج الرقص والغناء داخل القلعة بأصوات القصف من خارج أسوار القلعة، حتى أن "الليدي ستيفاني" أم العريس، أعدت بنفسها أطباقا من حفل الزواج وأرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين، فأصدر أوامره بعدم قصف مكان الزواج<sup>5</sup>.

ازدادت الأمور سوءا في بيت المقدس بعد وفاة بلدوين الرابع بعد معاناة طويلة مع مرضه، ليخلف بعد موته مشاكل كثيرة تتعلق بالوصاية، حيث دفنت جثته في كنيسة القبر المقدس سن 581هـ/ 1185م، هذا النزاع الأسري قرر ريموند الثالث عقد هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات 581هـ-585هـ/ 1185م-1189م، وقد كانت هذه المعاهدة تحدم الطرفين: حيث أن صلاح الدين أراد حل بعض المشاكل في مصر، رمت إلى سمعه أن عز الدين مسعود أمير الموصل أراد القيام بثورة ضده، فأراد التفرغ لمعالجة هذه المشاكل، أما بالنسبة للطرف الصليبي أدرك ريموند أن الصليبيين بحاجة

<sup>1</sup> العربي، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت)، ص74.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص286.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ج10، ص142.

<sup>4</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص143.

<sup>5</sup> رنسيان، المرجع السابق، ج2، ص500.

ماسة إلى الهدوء وحل مشاكلهم الأسرية، وحتى يتمكن من دعم موقفهم، ناهيك عن الجفاف الذي عانت منه بلاد الشام في ذلك الشتاء، مما أدى إلى ظهور المجاعة في صفوف البارونات المجتمعين في القدس.<sup>1</sup>

تزامن ذلك أيضاً لما مرض السلطان الناصر مرضته الشهيرة، لكنه شفي منها وصمم على مواصلة الفتوحات.<sup>2</sup>

كان من نتائج الهدنة: تجدد حركة التجارة كما كانت عليه، وعادت بالنفع لكلا للطرفين، لكن لسوء حظ الصليبيين يقول رنسيمان: "لكن الأقدار كانت قاسية على المسيحيين مرة أخرى، في حوالي سنة 582هـ/ 1187م توفي بلديون الخامس في عكا ولم يتجاوز التاسعة من عمره.<sup>3</sup>

كانت أوضاع الصليبيين لا تبشر بالخير أبداً، تأزمت الأوضاع على ما كانت عليه في السابق بعد وفاة هذا الأخير، فسرعان ما تم سحب الوصاية من ريموند الثالث، وتحويل الملك من الطفل إلى أمه سيبيلا التي سلمت بدورها تاج الملك إلى زوجها جاي لوزنيان وهذا ما أراده معارضو ريموند الثالث.<sup>4</sup>

عبر ريموند الثالث عن سخطه من هذا الانقلاب، فأتجه إلى طبرية لكنه فوجئ أنه جرد من إقطاعه في بيروت، وسرعان ما عقد هدنة مع صلاح الدين دون علم الملك بذلك، فتعاطف معه السلطان ووعده بمساعدته في سبيل أن يصبح ملكاً للفرنج<sup>5</sup>، يقول ابن واصل<sup>6</sup>: "فالتجأ القومص إلى ظل السلطان، فقابله وقواه وشد عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه.

انقسم الصليبيون بين مؤيد ومعارض لتصرف ريموند الثالث، حيث اعتبر بعضهم أن تحالف هذا الأخير مع صلاح الدين يعتبر خيانة فادحة للمملكة، فيما دعاه آخرون للعدول عن قراره، تجنبا لأي حرب أهلية، لكنه رفض ذلك واشترط أن يعيد له الملك بيروت فرفض الملك ذلك<sup>7</sup>، أما صلاح الدين فقد فرح بهذا الانقسام الذي حدث داخل صفوف العدو واعتبره لصالحه، يقول ابن الأثير<sup>8</sup>: "فاختلفت كلمتهم، وتفرق شملهم، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم"، حيث اعتبر ابن الأثير لجوء ريموند لصلاح الدين من بين الأسباب الرئيسية التي ساهمت في هزيمة الفرنج.

<sup>1</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ص 504.

<sup>2</sup> البنداري، سنا البرق الشامي، ص 299.

<sup>3</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 505.

<sup>4</sup> يعقوب القيتري، المصدر السابق، ص 148.

<sup>5</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص 504.

<sup>6</sup> المصدر السابق، ج 2، ص 185.

<sup>7</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص 511.

<sup>8</sup> المصدر السابق، ج 10، ص 142.

## المطلب الثاني: معركة حطين ونتائجها.

سارت الأحداث بسرعة لصالح الملك الناصر، حيث أنه في عز انهيار العدو الصليبي واصل تقدمه نحو النصر باتجاه مملكة بيت المقدس، فبعد انتصاره في عكا اتجه إلى صفورية لفتح مدينة طبريا، واختار الصليبيون صفورية أيضا مكانا لتجمعهم، غير أن صلاح الدين قام بمهاجمة طبرية، في خطة محكمة ليحجر الصليبيين لمغادرة موقعهم في صفورية<sup>1</sup>، التي تميزت بأنها منطقة غنية بالماء، وانقسم الصليبيون إلى رأيين: الأول أن الملك جاي لم يشأ مغادرة المدينة وعدم المخاطرة بجيشه، أما الثاني فكان لريموند الذي ألقى خطابا أوضح فيه مدى حماقته لأنه أراد السير والتخلي عن موقعه والمجازفة بالسير إلى تلال طبرية متحججا بأنها مدينته وهو المدافع عنها، واستطاع ريموند إقناع الملك بمغادرة المكان باتجاه طبرية.<sup>2</sup>

يضيف سهيل طقوش بهذا الصدد قائلا: وبمغادرة الصليبيين موقعهم في صفورية، تحقق النجاح الأول لسياسة صلاح الدين الحكيمة، لأنها تشتت بغزارة مياها حتى في فصل الصيف.<sup>3</sup> وقصد صلاح الدين إخراجهم من مكائهم لقتالهم، ومحاصرهم في منطقة جافة شديدة الحر، نفذ مخزومهم من الماء، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين، وبقوا على هذه الحال إلى يوم غد وهو السبت، وأخذ المسلمون يراقبونهم وقد تحمسوا لقتالهم.<sup>4</sup>

تقابل الطرفان عند قرون حطين يوم السبت 24 ربيع الآخر/ 3 جويلية، ودارت المعركة بينهم فقتل المسلمون فيها الكثير من الفرج، وألقوا في الأرض نارا، فاختلطت حرارة الدخان المنبعث من النار وحرارة الجو الشديد، يقول ابن الأثير<sup>5</sup>: اجتمعت عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال.

حاصر المسلمون من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين، وأخذ المسلمون صليبيهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصليب، ويدعون أنه نفس الصليب الذي صلب عليه المسيح عليه السلام - حسب زعمهم -، فكان سلبه منهم علامة على اقتراب هلاكهم بالنسبة لهم.<sup>6</sup>

تأثر الجنود المشاة بالحر الشديد، وقد قتل كثير منهم، وكانت جنتهم في كل مكان ومنظر أفواهم المتورمة تثير الألم، حتى أن منهم من توسلوا لقادة المسلمين كي يقتلوهم جميعا رحمة بهم، فيما أبدى الخيالة شجاعة كبيرة وبسالة، لكن عددهم أخذ في التضاؤل بعد الهجمات المتكررة من جانب المسلمين حتى أدركوا أنهم هالكون لا محالة.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 146.

<sup>2</sup> رنسيما، المرجع السابق، ج 2، ص 515.

<sup>3</sup> تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 149.

<sup>4</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 146.

<sup>5</sup> المصدر السابق، ج 10، ص 147.

<sup>6</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 147.

<sup>7</sup> رنسيما، المرجع السابق، ج 2، ص 519.

هرب القومص ريموند الثالث عندما أدرك هلاك جيشه، ووصل إلى طرابلس، أما مقدمو الأستبارية والداوية، فاختار السلطان قتلهم جميعا، في حين أن أرناط، والملك غي جقري وأخاه، استحضرهم السلطان، وقدم شربة من الماء المثلج لهم، ووفقا للعادات العربية ما من أسير أكل أو شرب عندهم، فإن ذلك يعني الإبقاء على حياته، والتفت صلاح الدين إلى أرناط وذكره بما فعله، وأنه أقسم على قتله، فقام بضرب عنقه بنفسه، وأبقى على حياة الملك وقال له: ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك.<sup>1</sup>

وسط هذا الانتصار العظيم، بات الناس تلك الليلة على فرحة غامرة، وارتفعت أصوات الجيوش بالحمد والشكر والتكبير حتى صباح يوم الأحد، فنزل الملك الناصر على طبرية، وتسلم قلعتها وبقي بها حتى يوم الثلاثاء.

### • تعقيب على معركة حطين

كان الانتصار في حطين بمثابة دفعة معنوية عظيمة الأثر في نفوس الجيوش الإسلامية، التي تفاءلت بمستقبل الإسلام، وأعطت آملا وبعثت في نفوسهم العزيمة للمضي قدما، وتحرير بيت المقدس من أيدي العدو الصليبي المنهك المحبط بعد هذه الهزيمة.

كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية حلت بالصليبيين، لقد كانت في الحقيقة أمرها بشيرا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى<sup>2</sup>، لأن الصليبيين لم يفيقوا أبدا من تلك الضربة، ولم يكن منتظرا من مملكة بيت المقدس بعد فناء جيشها أن ينهض ويقاوم من جديد.<sup>3</sup>

عزز صلاح الدين مركزه بين قائده وملوك العالم، بفضل هذا النصر غدا اسمه محفورا في التاريخ، ووضع بين مصاف كبار القادة والحكام المسلمين، كما أنه أعاد الثقة التي سلبت من المسلمين، والكرامة التي فقدوها بعد وفاة نور الدين الزنكي.<sup>4</sup>

كانت الخطة الحكيمة التي رسمها صلاح الدين سببا في انتصاره على العدو الصليبي، فقد أحسن اختيار أرض المعركة وزمن وقوعها، حيث أن شهر تموز أشد أشهر السنة حرارة وأقله ماء، إضافة إلى أنه خيم بعسكره على طبرية، وبذلك حال بين الصليبيين والماء<sup>5</sup>، مما أثر على العدو وجعله ينهزم.

<sup>1</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ج3، ص295-297.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص153.

<sup>3</sup> سعيد عاشور، مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص53.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص153.

<sup>5</sup> النوري، المرجع السابق، ص294.

اعتبرت معركة حطين بمثابة معركة تحرير فلسطين، لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، ويؤكد ذلك ابن واصل<sup>1</sup> بقوله: "وهذه الواقعة كانت مفتاح الفتوح الإسلامية، وبها تيسر فتح بيت المقدس...".

كان يوم الانتصار في حطين يوماً عظيماً الشأن في تاريخ الأمة الإسلامية، يضيف ابن واصل<sup>2</sup> فيقول: "منذ استيلاء ملوك الفرنج على البلاد الساحلية، لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين... فلم يؤيد الإسلام -بعد الصحابة- برجل مثل صلاح الدين، ونور الدين زنكي، فهما جودا الإسلام...".

أيضاً من الجدير بالملاحظة أن العسكر الصليبي، كان في العدد والعتاد يفوق الجيش الأيوبي، وكان المقاتل الصليبي محمياً بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه، وكان الخطر الوحيد الذي يهدده هو سقوطه من على ظهر الفرس، لذلك فالهزيمة التي أصابت الصليبيين لم تكن نتيجة لقلّة مواردهم، وإنما يرجع ذلك لحنكة صلاح الدين وخبرته السياسية، حيث أصبحت سياسته حديث الساعة التي يتناقلها الناس، حتى أنه ظهرت في العصور الوسطى رواية أدبية مفادها أن صلاح الدين كان يعتنق الدين النصراني، إلا أنه تركها بسبب تصرف القس ورجال الدين السيء، وأخذ يحاربهم بعد أن تعرف على أساليبهم وسياستهم.<sup>3</sup>

ضاعت هيبة بيت المقدس، وسرعان ما استسلمت القلاع الصليبية لصلاح الدين حيث كانت بالنسبة له عبارة عن نزهة عسكرية.<sup>4</sup>

تجلت أهمية مصر الاقتصادية والبشرية، حيث اعتبرت كقاعدة بشرية ومادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، أيضاً بروز فلسطين كمنطقة عبور يصل بين الشام ومصر.<sup>5</sup>

أظهر صلاح الدين تسامحاً وأخلاقاً جليلاً جعلته ممدوحاً من طرف عدوه قبل أقرابه، حيث أنه تسامح مع أسراه من المسيحيين، فأطلق صراح من كان من نصيبه منهم دون فداء، وتنازل عن نصيبه أيضاً في الغنائم للفقراء المسيحيين، حيث اعتبر صلاح الدين أرحم فاتح من المسلمين.<sup>6</sup>

### المطلب الثالث: نتائج معركة حطين

بعد الانتصار الساحق الذي خلده صلاح الدين في المنطقة، أخذ يتوسع ليضم كامل البلاد تحت إمرته، ولم يواجه أي صعوبات في عمليات الفتح، حيث كانت المدن والقلاع تعلن استسلامها بمجرد وصول المسلمين إليها وبعد فتح طبرية

<sup>1</sup> مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج 2، ص 188.

<sup>2</sup> نفسه، ص 193.

<sup>3</sup> النوري، المرجع السابق، ص 294.

<sup>4</sup> قاسم عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك، المرجع السابق، ص 64.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص 154.

<sup>6</sup> عبد المنعم ماجد، الدولة الأيوبية، المرجع السابق، ص 107.

كان أمام صلاح الدين أمرين، إما أن يتجه مباشرة نحو القدس، ويفتحها، ومن ثم يستكمل فتح بقية المدن، أو أن يفتح المدن والحصون المجاورة أولاً، ثم يتجه إلى بيت المقدس، وقد اختار الأمر الثاني<sup>1</sup>، ذلك لأنه رأى في الخطة الأولى مخاطرة، وسيطلب منه قوات إضافية لمحاصرة المدن والحصون الصليبية، أو قطع طريق مواصلاتها مع بيت المقدس، كما أن الهجوم مباشرة على بيت المقدس من شأنه أن يحدث استنفاراً كبيراً وسط الصليبيين، مما يؤدي إلى تجمعهم جميعاً داخل بيت المقدس ضده.<sup>2</sup>

اتجه بعدها السلطان إلى عكا فوصلها يوم الأربعاء ربيع الآخر سنة 583هـ/ جويلية 1187م<sup>3</sup>، وفتحها بالأمان، ثم أرسل أخاه العادل فنازل مجد البابا، وفتح عنة بالسيف، ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا كل من الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلسا والقلعة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف.<sup>4</sup>

اعتبرت مدينة عكا موقعا هاما وقلب مدن الإفرنج بالشام، حيث صور لنا ابن جبير خلال مشاهدته لهذه المدينة، كيف كانت عليه، حيث أنها غنية بالموانئ والسفن والموارد الطبيعية، لدرجة تشبيهها لعظمتها بالقسطنطينية، حيث أنها مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين<sup>5</sup>، ونظرا للموارد التي تزخر بها المدينة فقد كان افتتاحها وتملكها من قبل المسلمين مكسبا عظيما، مما يحقق الاتصال البحري بين طرقي دولته في مصر وبلاد الشام.<sup>6</sup>

واصل صلاح الدين تقدمه نحو بيت المقدس بفتح المدن الساحلية، ومدن الجليل، وصولا إلى عسقلان وحصونها<sup>7</sup>، حيث حاصرها أربعة عشر يوما، وتسلمها في جمادى الآخرة، ثم انتشر جيش صلاح الدين في باقي الحصون المجاورة، ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل وغيره من المدن، وبعد عشرة أيام من الحصار تمكن جيش السلطان من فتح ثغره في أحد أساورها، فاضطر السكان إلى طلب الأمان فمنحهم إياه، واشترط عليهم مغادرتها على أن لا يحملوا معهم سوى امتعتهم.<sup>8</sup>

بعد الفتوحات المتتابة تطلع صلاح الدين الى تحقيق هدفه الذي طالما انتظره وعمل على تنفيذه، ألا وهو تحرير بيت المقدس من أيدي العدو الفرنجي<sup>9</sup>، حيث أن أول عمل قام به هو قطع الطريق على أي هجوم صليبي متوقع على

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص158.

<sup>2</sup> Stevenson/ Op cit, p249.

<sup>3</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص290. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص201.

<sup>4</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص290.

<sup>5</sup> ابن جبير، رحلة ابن خببر، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص276.

<sup>6</sup> Stevenson/ Op cit, p249.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص209.

<sup>8</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص292.

<sup>9</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص164.



الساحل الشامي، حيث أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ، أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.<sup>1</sup>

كان السلطان الناصر صلاح الدين حريصا على عدم إراقة الدماء، فسعى إلى مفاوضة سكان بيت المقدس من الصليبيين، على تسليمها سلمًا، فأرسل إليها السكان وفدا اجتمع به أمام عسقلان، وعرض عليهم صلاح الدين نفس الشروط التي فتح بها بقية المناطق سلمًا، لكنهم رفضوا أن يسلموا المدينة، فأقسم صلاح الدين حينها بأخذها منهم بالقوة عنوه<sup>2</sup>، يقول ابن شداد<sup>3</sup>: "وطلب الإفرنج الأمان فلم يجيبهم السلطان إلى ذلك، وقال لآخذها إلا بالسيف مثل ما أخذها الإفرنج من المسلمين".

وُجد في بيت المقدس آنذاك البطريك المعظم، وهو أعظم شأن عندهم من الملك، وأيضا باليان بن بيززان وهو صاحب الرملة، وهو أيضا كان ذو شأن عظيم عندهم، رتب هذا الأخير عملية الدفاع عن بيت المقدس، بعد أن اجتمع به جماعة من قومه، ورأوا أن الموت أهون عليهم من أن يأخذ المسلمون منهم مكائهم المقدس، ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا صلاح الدين من الاقتراب منه، وعند اقتراب السلطان خرج أمير مع جماعة من جنده غير محتاط فلقبه جمع من العدو، فتقاتلوا، فقتل الأمير، فحزن المسلمون على موته.<sup>4</sup>

وصل صلاح الدين القدس في يوم الأحد الخامس عشر رجب عام 583هـ/ 20 سبتمبر 1187م، ونزل بعسكره في الجانب الغربي وكان مزودا بما يزيد عن ستين ألف مقاتل من الخيالة والرجال، وأخذ السلطان يهاجم البلد لكنه كان في غاية الحصانة وامتنع عنه، بقي خمسة أيام يطوف حول البلد، فرأى أن يتحول بعسكره جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون، في 20 رجب/ 25 سبتمبر وأخذ ينصب المنجنيق عليها.<sup>5</sup>

أبدى كلا الطرفين بسالة في الحرب، حيث أنهما تقاطلا بالمنجنيق أشد قتال، حيث أنهم يرون في حماية بيت المقدس واجبا دينيا وفرضا لا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمتنعون فلا يمتنعون وينجرون فلا ينزجرون.<sup>6</sup>

أحدث المسلمون ثغرة كبيرة في السور ودخلوا منها، فلما أدرك الفرنج أن نهايتهم قد اقتربت اتفقوا على طلب الأمان، هذا وقد تم اقتناع باليان بعدم جدوى القتال من طرف البطريك، وأرسلوا وفدا إلى صلاح الدين واشترطوا احترام من في

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 155.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 164.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ص 292.

<sup>4</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 155.

<sup>5</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 212.

<sup>6</sup> نفسه، ص 212.

المدينة من الصليبيين والسماح لمن يريد المغادرة، لكن السلطان رفض هذه المرة وقال: "لا أفعل بكم كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسي، وجزاء السيئة يمثلها".<sup>1</sup>

رجعت الرسل إلى الملك خائبين محرومين، فأرسل بالبيان وطلب الأمان لنفسه، وأحضر عند السلطان ولم يجبه، وبعدها اتفقوا على بذل الأمان للفرنج بعد أن استشار صلاح الدين أصحابه، استقر رأيه على أن:

- يؤخذ من الرجل 10 دنانير سواء أكان غنيا ام فقيرا.
- يزن الطفل من الذكور والبنات دينارين.
- ان تزن المرأة خمسة دنانير.
- اشترط السلطان أن لا ينقضي مدة الأربعين يوما، فمن أداها قبل المدة فقد نجح، ومن انقضت عنه وفاته الأوان المحدد في الاتفاق صار مملوكا، فبدل بالبيان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وبهذا سلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب 583هـ/ 2 أكتوبر من عام 1187م بنفس السنة.<sup>2</sup>

يضيف رنسيما<sup>3</sup> عن هذا الفتح بقوله: "وبناء على أوامر بالبيان ألفت الحامية سلاحها، ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة 2 أكتوبر الذي يوافق 27 رجب، وهو ذكرى إسراء النبي إلى القدس ومعراجه إلى السماء.

وفي وصف عظمة هذا اليوم لدى المسلمين، يخبرنا ابن الأثير<sup>4</sup>: "وكان يوما مشهودا، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره، ورتب صلاح الدين على أبواب البلد في كل باب أمينا من الأمراء لأخذ المال المقرر على الخارجين من القدس"، لكنهم خانوا ولم يحملوا إلا القليل.<sup>5</sup>

أظهر السلطان سماحة الدين الإسلامي في أفعاله وأقواله، حتى أضحي بمدح من طرف المؤرخين الأجانب، يقول رنسيما<sup>6</sup>: "كان المنتصرون أهل استقامة وإحسان، حيث لم ينهب منهم ولم يصب شخص واحد، وبأمر من صلاح الدين طاف الحراس في الشوارع والأبواب لمراقبة و إيقاف الاعتداء على المسيحيين، في حين أن الأمراء الصليبيون لم تهمهم سوى أنفسهم، فقد افتدى البطريك نفسه بعشرة دنانير، وقد صدم المسلمون لرؤيته تاركا المدينة مع هيئة الكنيسة مثقل بالذهب الذي كان يحمله معه، ومن مظاهر الرأفة والتسامح أيضا وعند خروج المسيحيين في صفين، الأول يضم

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص155.

<sup>2</sup> نفسه، ص156.

<sup>3</sup> المرجع السابق، ج2، ص523.

<sup>4</sup> المصدر السابق، ج10، ص157.

<sup>5</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص291.

<sup>6</sup> المرجع السابق، ج2، ص254.

من استطاع دفع الفدية أو من دفعها عنهم باليان، والثاني من لم يستطيع دفعها فكانوا يساقون إلى الرق، فما كان من العادل أخو صلاح الدين إلا أن يطلب إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة له على خدماته، فأجابه السلطان وقبل بذلك.<sup>1</sup> ما فعله صلاح الدين وأمراه لم يكن ليفعله أي قائد في مثل هذه الظروف وفي عز انتصاره، فلم يكن مجرد انتصار فحسب، بل كان يوماً مشهوداً بالنسبة لهم، مع ذلك طبق سياسة العفو عند المقدرة، وهي من الأخلاق العظيمة في الإسلام، فالعفو عن المسيء عند المقدرة على معاقبته من المكارم التي لا تتحقق إلا لدى الإنسان المؤمن، ودعا إليه القرآن الكريم لقوله سبحانه وتعالى: "فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"<sup>2</sup>، وقوله أيضاً: "فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامًا"<sup>3</sup>، ويذكرني هذا الخلق النبيل بحادثة فتح مكة المكرمة في عهد الرسول (ص)، عندما قال: "اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ"<sup>4</sup> لأهل مكة، والافتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام والسير على منهاج القرآن ومكارم الأخلاق كما فعل هذا القائد البطل، لا يفعله الا من وضع نصب عينيه الآخرة وإعلاء رايه الإسلام، وترغيبه للخلق أجمعين.

لم يكتف السلطان بذلك فحسب، بل حتى أنه أنفق من ماله الخاص لإطلاق سراح كل اليتامى، وعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز، فكان عطفه ورحمته ناصعة البياض على نحو غريب، ازاء ما تم ارتكابه من طرف الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى.<sup>5</sup>

وقد حث الكثير من أصدقاء صلاح الدين على تدمير كنيسة القبر المقدس، لكنه رفض ذلك بحكم أنهم يقدسون الموقع وليس المبنى وأنهم يزاولون فيه الحج، وقد سمح للحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين، وجاءت انتصارات صلاح الدين بالبينة التي تدل على قوة الشرق وروحه، وفي قرني حطين، وعلى بوابات القدس، انتقم لإهانة الحملة الصليبية الأولى، وأظهر كيف يحتفل الشريف بانتصاره.<sup>6</sup>

وعن هول هذه الحادثة في نفوس الصليبيين يحدثنا ابن الأثير<sup>7</sup>: "وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فحين صعّدوا صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً، وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً،

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 157. رنسيان، المصدر السابق، ج 2، ص 524.

<sup>2</sup> الحجر، الآية 85.

<sup>3</sup> الزخرف، الآية 83.

<sup>4</sup> البهقي، السنن الكبرى، مؤسسة حواد للطباعة والتصوير، ط 1، بيروت، 1356هـ، ج 9، ص 118.

<sup>5</sup> رنسيان، المصدر السابق، ج 2، ص 524.

<sup>6</sup> المرجع السابق، ج 2، ص 525، 530.

<sup>7</sup> المصدر السابق، ج 10، ص 158.

فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمتها وشدتها. أمر السلطان بعد ذلك بإزالة النهر الذي كان يذهب إليه الصليبيون على الساحل، وقام بإعادة الجامع إلى ما كان عليه.<sup>1</sup>

استمر السلطان في عمليات الفتح وإزالة كل ما له علاقة بالصليبيين، فسارع بمحو الهوية الصليبية، وارجاع الأماكن والحصون إلى ما كانت عليه من قبل.

رحل السلطان الناصر متجها نحو صور، بعد أن فرغ من بناء الربط والمدارس، منها: مدرسة للشافعية في دار الإستبار، وجد صلاح الدين مدينة صور: ممتلئة بالصليبيين حيث أنهم لجأوا للاحتماء فيها من هول الحرب حفاظا على أنفسهم، وأخبر بهم ابن الأثير<sup>2</sup>، بأن بهم من الخلق الكثير، وقد سار المراكيش صاحبها الذي أسرع ببناء سور لما علم بدنو صلاح الدين من المدينة، فصارت كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها، وصل صلاح الدين إليها في الثاني والعشرين من رمضان 583هـ/ 25 نوفمبر 1187م، كان رينولد صاحب صيدا يتفاوض مع صلاح الدين لتسليم المدينة، في خضم هاته الأحداث كان قد وصل إلى المدينة كونراد ابن الشيخ المسن مونتيفرات في منتصف جويلية كان بالقسطنطينية، وهاجر لأجل الحج، ولم يكن على علم بما حدث لبيت المقدس، وفور وصوله نصب نفسه ملكا على الصليبيين هناك، وسارع إلى إلغاء شروط السلام مع صلاح الدين<sup>3</sup>، حاول الملك الناصر مفاوضة كونراد، حيث كان أبوه أسيرا لدى صلاح الدين، فحاول أن يستغله كورقه ضغط في التأثير عليه وهدد بإعدامه، لكن هذه المحاولة فشلت أمام تصلب كونراد الذي رد على السلطان بأنه يفضل أن يذبح هو وأبوه على أن يسلم جزء من المدينة.<sup>4</sup>

اضطر بعد ذلك صلاح الدين إلى رفع الحصار عن المدينة نتيجة المواجهة والاستبسال في القتال، وصدود العدو باتجاه الغارات الجوية والبرية للمسلمين، كان ذلك في آخر شوال 583هـ/ أول ديسمبر 1185م<sup>5</sup>، ويعد ذلك أول فشل يتعرض إليه صلاح الدين بعد معركة حطين.<sup>6</sup>

من بين الأسباب التي جعلت المسلمين يخفقون في ضم صور:

- أولا ان الشتاء كان شديد البرودة مما يؤثر على مردودية القتال.<sup>7</sup>

<sup>1</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص 293.

<sup>2</sup> المصدر السابق، ج 10، ص 159.

<sup>3</sup> القيتي، المصدر السابق، ص 15. رنسيان، المرجع السابق، ج 2، ص 529.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 170.

<sup>5</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص 293.

<sup>6</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 170.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 245.

- موقع مدينة صور المطل على البحر، فبعد فشل الحصار العسكري الذي ضربه الأسطول المصري عليها فاستمرت المؤن والعتاد في الدخول إليها.<sup>1</sup>
- كان لعطف صلاح الدين وتعاطفه مع الصليبيين فرصة انتهزها هؤلاء وأعادوا تنظيم صفوفهم من ورائها، يقول طقوش<sup>2</sup>: "مما رفع معنويات هؤلاء، فتكتلوا للدفاع عن المدينة"، بمعنى أنهم أحسوا بنوع من الارتياح النفسي، فقاموا بشحن قواهم، وفتح أذهانهم للتفكير في حل يجعل الفوز من نصيبهم.
- ويبالغ المؤرخ ابن الأثير في لومه على عدم تمكن صلاح الدين من الظفر بالمدينة فيقول<sup>3</sup>: "ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه جهز إليها حشود الفرنج، وأمدّها بالرجال والأموال، كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور، ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، إن ساعدته الأقدار...". ومما يمكن استخلاصه من هذا الكلام: تساهل ولين صلاح الدين اتجاه عدوه، جعله يستغل الفرصة ويخطط للتفكير واستقطاب أكبر عدد ممكن من الصليبيين الذين يجتمعوا بهذه المدينة الساحلية، وشكلوا قوة حربية أو جداراً منيعاً لأي هجوم قادم.
- يجب على القائد أن يتعد على اللين في اتخاذ القرارات خاصة المصرية، وأن يتحلّى بالحزم.
- من بين الأسباب أيضاً ملل عساكر الإسلام لطول الحصار وطلبهم الرحيل عنها<sup>4</sup>، فلربما تعودوا على الفوز، ولما استعصت عليهم "صور"، تقاعصوا وتخاذلوا، أو لربما أيضاً شعروا بالتعب والإنهاك بعد انتصار حيطين والله أعلم، حيث أننا لا نعلم الظروف والأسباب الفعلية التي كان يمر بها السلطان في تلك الفترة بالذات، لذلك لا يمكن الحكم، وعلى كل حال رحل الملك الناس عن المدينة إلى عكا.
- استقر صلاح الدين في سلسلة الفتوحات، فحاصر الكرك وشوبك، حيث كان هذان الحصنين تحت حكم ستيغاني، فطلبت من صلاح الدين إطلاق سراح ابنها فاشترط عليها تسليم الحصن مقابل ذلك، لكن الحصين امتنع مما أدى إلى إعادة ابنها للأسر، وأطلق صلاح الدين بعد أشهر صراحه، وقام بحصار الحصنين واستمرت مدة الحصار أكثر من سنة إلى أن تعب أهلها من الفرنج.
- ونفذت ذخائرهم، ويئسوا، وصبروا حتى لم يبقى للصبر مجال، وكان الفتح شهر ربيع الأول عام 584هـ/ماي 1188م.<sup>5</sup>
- اتجه بعدها صلاح الدين نحو الحصون من جهة الشمال، بعد فتحه للمناطق الجنوبية للشام عدا "صور"، تصوب نظره جهة إمارتين طرابلس وأنطاكية، فبدأ بحصار حصن الأكراد ربيع الآخر/ جوان، وحصن المرقب، امتنع عليه، فاتجه

<sup>1</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص170.

<sup>2</sup> نفسه، ص171.

<sup>3</sup> المصدر السابق، ص160.

<sup>4</sup> نفسه.

<sup>5</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص272.

إلى بانياس وفتحها، ووجه قواته على المناطق الساحلية، فاستسلمت له اللاذقية، وهي من أكبر موانئ إمارة أنطاكية، ثم فتح حسن كسراييل، وبعد ذلك توجه إلى الداخل وذهب برفقته ابنه الظاهر غازي صاحب حلب، ففتح قلعة صهيون عنوة، فاستسلمت له حامية (سرمين، وبرزية، بكاس والسقر)، واستسلمت أيضا له "بغراس" التابعة للداوية، وكانت تتحكم في الطريق المؤدي من أنطاكية إلى كيليكية.<sup>1</sup>

ونظرا للأوضاع المزرية للمملكة الأنطاكية طلب ملكها بوهيمند الثالث من صلاح الدين عقد هدنة، وقام بإطلاق سراح الأسرى من المسلمين، فاستشار السلطان أصحاب الأطراف، اتفق معظمهم على قبول الهدنة نظرا للتعب والإرهاق الشديد اللذان أصابا العساكر الإسلامية، نتيجة القتال والفتوحات فوافق السلطان، عقدت الهدنة من أول أكتوبر إلى آخر ماي، أي في 8 أشهر.<sup>2</sup>

تمكن السلطان الناصر من خلال الاتفاقية من الهجوم مجددا على الحصون الجنوبية، بعد إعفاء القليل من عساكره، ففتح حصن الداوية والأسبتارية في كوكب<sup>3</sup> في شهري شوال وذي القعدة عام 584هـ/ ديسمبر 1188م جانفي 1189م.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص 293، 294.

<sup>2</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 175، 174.

<sup>3</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 272، 273.

<sup>4</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 174.

## المبحث الثالث: صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة.

## المطلب الأول: وصول الإمدادات الصليبية

قبل أن يقرر الصليبيون حصار عكا، أيقنوا بضرورة وصول الدعم من الخارج، كي يتمكنوا من ممارسة أي عمل عسكري، فراحت المملكة تبعث رسلها إلى ملوك أوروبا الغربية للحصول على الدعم العسكري، لتقوية حظوظها في القتال، وضمن نجاح حملتها، بعد الهزائم المتتالية التي أصابتهم منذ معركة حطين 583هـ/1187م.

وصلت الإمدادات سريعاً، وكان الرهبان والقسوس -رجال الدين-، منذ أن ملك المسلمون بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا حزنهم، وكانوا قد دخلوا وطافوا بجميع بلاد الفرنج، واستغاثوا الناس، وحثهم على استرجاع بيت المقدس، وقد صوروا المسيح عليه السلام مع رجل عربي يضربه بعضاً، والدمام عليه، مما أدى إلى غضب الأهالي، فخرج منهم الكثير حتى النساء، ولما اكتمل عددهم ساروا إلى عكا وحاصروها، ودارت بينهم وبين المسلمين معركة قتل فيها من المسلمين الكثير<sup>1</sup>.

أرسل كونراد دي مونتيفرات إلى رئيس أساقفة صور جوسياس في غرب أوروبا سنة 583هـ/1187م، فلبى ندائه ووصل إلى صقلية وأخبر ملكها ويليام الثاني عن ما حل ببيت المقدس، فما كان من هذا الأخير سوى أن يعقد هدنة مع ملك بيزنطة اسحق الثاني الذي كان في حرب معه، فكان هذا الصلح بتاريخ محرم 584هـ/مارس 1188م، ثم أرسل أسطولاً يضم المئات من الفرسان إلى طرابلس<sup>2</sup>. توالى الإمدادات فوصل الملك الألماني فريدريك الأول الذي اتصل به خليفة البابا جريجوري الثامن كليمنت الثالث الذي تولى الحكم عام 583هـ/1187م 1191م، ونجح في إقناعه للمشاركة في حرب صليبية باتجاه الشرق، حدث هذا في الوقت الذي انتقل فيه جوسياس إلى مقابلة مليكي فرنسا وانجلترا فيليب أغسطس وهنري الثاني، وأقنعهما بعقد صلح، لكن سرعان ما تجددت الحرب بينهما من جديد، ثم توفي هنري الثاني ملك إنجلترا عام 585هـ/1189م، وخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد الذي عقد صلحاً مع الملك الفرنسي، واستعد للحرب والقيام بحملة مشتركة إلى الشرق<sup>3</sup>.

حدث أن توفي ملك الألمان فريدريك بربروس، حيث أنه غرق في نهر كاليكادانوس (السالف) فاحتل نظام جيشه، فرجع معظمهم إلى بلادهم، فيما واصل آخرون طريقهم بقيادة ابنه، وشكلت وفاته صدمة كبيرة في صفوف أتباعه،

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 183.

<sup>2</sup> القيتري، المصدر السابق، ص 155.

<sup>3</sup> نفسه، ص 159، 158.

لاسيما الصليبيين لأنهم عولوا عليه وعلى جيشه الذي وصف بأنه ضخم وهائل، في نفس الوقت تنفس المسلمون الصعداء بوفاته، فكفى الله شره.<sup>1</sup>

### المطلب الثاني: سقوط عكا ومعركة أرسوف.

توالى الإمدادات لفائدة الصليبيين، ووصلت كل من الإمدادات الفرنسية والانجليزية، واتجهت مسرعة باتجاه عكا، حاصرت القوات الصليبية عكا، وهذا أدى الى تضييق الخناق على المسلمين داخل المدينة.

أمضى كل من فيليب ملك فرنسا و ريتشارد ملك إنجلترا فصل الشتاء منتظرين بقية جيوشهم للانضمام إليهم، ووصل ملك فرنسا قبل ريتشارد لأنه احتل جزيرة قبرص قبل وصوله وأطاح بالإغريق، وقد شرعوا في الهجوم على أساور المدينة، تواصلت الهجمات إلى أن أعلن الأهالي أنهم لم يستطيعوا المقاومة أكثر، وسلموا المدينة على أن يخرجوا منها أحرار، وأن يسلموا صليب الصلبوت الذي انتزعه المسلمون منهم في معركة حطين، ولكنهم لم يعثروا عليه، مما أدى إلى غضب ريتشارد قلب الأسد وكاد أن يقتل الأسرى، فتدخل ملك فرنسا وأدخلهم السجن من أجل مبادلتهم مع الأسرى الذين هم بجوزة صلاح الدين.<sup>2</sup>

بدأ صلاح الدين في جمع المال المطلوب لكي يفتدي به الأسرى المسلمين، لكن الصليبيين ماطلوا في تنفيذ الشق المتعلق بهم من الاتفاقية، حيث أن صلاح الدين أرسل إليهم القسط الأول من المال والأسرى، ولما طالبهم بتنفيذ البند الخاص بهم كاملا رفضوا، عندها أدرك عزمهم على الغدر، ورفض أن يسلمهم باقي الأسرى، أدى ذلك إلى ارتكاب ريتشارد مذبحه كبيرة حيث أمر بقتل ثلاثة آلاف أسير مسلم، وبكى صلاح الدين لذلك، ولم يفعل بالأسرى شيئا سوى أنه أمر بإعادتهم إلى دمشق.<sup>3</sup>

بعد تمكن الصليبيين من الاستيلاء على عكا انتقلوا منها إلى حيفا ويفا ووصلوها مستهل شعبان سنة 587هـ/ 1191م، واستأنفوا زحفهم نحو فيسارية، ودارت بينهم وبين الجيوش الإسلامية معارك إلى أن تمكن الفرنج من الاستيلاء عليها، لكن هذه المدينة بعد أن قام صلاح الدين بتخريبها لم يستفيد منها الصليبيون لا بمال ولا زاد، فما كان عليهم سوى الاستمرار بالزحف إلى أن وصلوا إلى مشارف أرسوف.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 194. أمبروز، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، "صليبية ريتشارد قلب الأسد"، تر: سهيل زكار، "دون ناشر"، دمشق، 1998م، ص 221، 220.

<sup>2</sup> القيتري، المصدر السابق، ص 165.

<sup>3</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 207. سعيد أحمد برجوي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، ط 1، بيروت،

1984م، ص 387. أحمد الشامي، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط 1، القاهرة،

1985م، ص 184.

<sup>4</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 208. ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 325.



كانت الجيوش الإسلامية السَّابِقة، حيث أحمهم وصلوا قبل الفرنج إليها، دارت بينهم معركة أرسوف، وتكبد فيها المسلمون هزيمة قاسية مما أدى بهم إلى السير باتجاه القدس لتخريب الرملة، أما الصليبيون فساروا إلى يافا.<sup>1</sup>

رغم أن الانتصار في معركة أرسوف لم يحسم للصليبيين، إلا أنه يعد انتصارا معنويا كبيرا لهم، لأنها تعد أول معركة مكشوفة بعد حطين، وازدادت شهرة ريتشارد مقارنة مع صلاح الدين الذي فقد نوعا من الهيبة والمكانة التي كان يحظى بها عند المسلمين، كما أنه مع تقدمه في السن ومرضه فكانت تعاوده الملاريا من حين إلى آخر، فكان كلما تقدم في السن فقد القدرة على التحكم في أمرائه المتنازعين، الذين يبحثون عن فرصة لأقول نجمه، حتى يثورون عليه وعلى حكمه.<sup>2</sup>

### المطلب الثالث: المفاوضات بين العادل وريتشارد قلب الأسد بعد معركة أرسوف.

اعتبر العادل أخو صلاح الدين دبلوماسيا ماهرا على حد تعبير رنسيما، حيث أنه استطاع إقناع صلاح الدين بقبول اقتراح ريتشارد بالهدنة في 18 شوال 587هـ/ نوفمبر 1191م، واشترط الملك الإنجليزي ما يلي:

- أن يستعيد صليب الصليب من صلاح الدين.
  - الحصول على بيت المقدس والإقليم الواقع غربي نهر الأردن.
- لكن صلاح الدين رفض ذلك بحجة أن بيت المقدس هو مكان مقدس عند المسلمين أيضا، وأنه لن يعيد له الصليب إلا مقابل الحصول على بعض الامتيازات، وتقدم ريتشارد بعد عشرة أيام بمقترحات جديدة تنص على ما يلي:
- أن يتزوج الملك العادل من الأميرة جوانا،<sup>3</sup> أخت ريتشارد قلب الأسد وأرملة ملك صقلية
  - أن يكون للعادل كل ما في حوزة صلاح الدين من فلسطين، مقابل أن يكون للملكة جوانا كل ما فتحه ريتشارد من المدن الساحلية، بما في ذلك عسقلان.
  - أن يقيم العروسان في بيت المقدس، وأن يتيسر للمسيحيين التردد عليها.
  - إعادة صليب الصليب وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين.<sup>4</sup>

اعتبر صلاح الدين هذه الشروط نوعا من المزاح، وأبدى فرحه، ريتشارد بدا أنه جاد في كلامه، إلا أن الرفض جاء من طرف أخته التي رفضت فكرة الزواج من رجل مسلم<sup>5</sup>، يقول ابن شداد<sup>6</sup>: "فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك، إلا أن ينصر الملك العادل"، بدلالة أنهم من ضغطوا عليها لكي ترفضه.

<sup>1</sup> ابن الأثير، المصدر السابق، ج 10، ص 211.

<sup>2</sup> رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العرني، دار الثقافة، بيروت، 1997، ج 3، ص 111، 112.

<sup>3</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج 4، ص 165.

<sup>4</sup> المصدر السابق، ج 3، ص 115، 116.

<sup>5</sup> رنسيما، المرجع السابق، ج 3، ص 116.

<sup>6</sup> المصدر السابق، ص 300.

بطبيعة الحال رفض الملك العادل التحول إلى دين النصرانية، فلم يتفق الحال بينهم مرة أخرى

يبدو أن العلاقات الصليبية الأيوبية قد أصبحت أفضل حالا، حيث أن رفض الملك العادل لطلب ريتشارد الذي يقضي باعتناقه للمسيحية جاء مؤدبا، حيث دعا الملك الإنجليزي على وليمة فاخرة أقامها في 18 شوال/ 9 نوفمبر من نفس السنة، وكان احتفالا كبيرا، وتعززت فيه روابط الصداقة بين الطرفين، حيث تبادلوا الهدايا.<sup>1</sup>

وفي الوقت نفسه، استقبل صلاح الدين رينولد صاحب صيدا وهو رسول من قبل كونراد دي مونتيفرات، عرض عليه أن يتحالف معه مقابل أن يمنحه صيدا وبيروت، وأن تعود عكا إلى المسلمين<sup>2</sup>، وقد حاول ريتشارد مع كونراد ليرجعه في صف الصليبيين غير أن محاولاته فشلت، وجدد كونراد محاولة التفاهم مع صلاح الدين.<sup>3</sup>

لجأ السلطان الناصر إلى عقد اجتماع مع أركان حزبه، ليقرر مع من يمضي المعاهدة، وأي الطرفين أنسب للمفاوضة، ومال صلاح الدين إلى ريتشارد لأنه سوف يرحل عن الشرق، عكس كونراد الذي كان ينوي البقاء والاستقرار في فلسطين، فتقرر قبول مقترح ريتشارد.<sup>4</sup>

اغتيال كونراد في 13 ربيع الآخر سنة 588هـ/ أبريل 1192م، على يد رجلين يقال أنهما من الحشيشية<sup>5</sup>، ففرح ريتشارد بهذا الخبر لأنه كان يرأسل صلاح الدين ويعينه في حربه هي ضد ريتشارد، وخلفه هنري دي شامبانيا على مملكة بيت المقدس، وتزوج من أرملة كونراد وورثة عرش المملكة.<sup>6</sup> يقول أبو شامة<sup>7</sup>: "أنها كانت حامل عندما دخل بها، ويضيف: وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوباً إلى المملكة، هذه قاعدة عند الطائفة المشتركة". وبهذا تكون مشاكل الفرنج الداخلية حلت.<sup>8</sup>

تفاقت مشاكل المسلمين الداخلية، بعد استيلاء الفرنج على قلعة الداروم في 9 جمادى الأولى/ 23 ماي من نفس السنة، فنهبوا، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على مجدل يابا، فاستمروا بالزحف نحو بيت المقدس<sup>9</sup>، ووصلوا بيت نوبا في 27 جمادى الأولى/ 11 جوان.<sup>10</sup>

<sup>1</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج3، ص116، 117.

<sup>2</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص166.

<sup>3</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص195.

<sup>4</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج3، ص117.

<sup>5</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص303. أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص176.

<sup>6</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج3، ص125.

<sup>7</sup> المصدر السابق، ج4، ص175.

<sup>8</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص196.

<sup>9</sup> نفسه.

<sup>10</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص205، 207. أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص176.

وقد تراجع ريتشارد عن قراره في الزحف باتجاه بيت المقدس، ما أثر ذلك إيجابياً على نفسية الجيوش الإسلامية، فلم يبد الطرفان رغبة في القتال، وأظهروا جموداً عسكرياً، فلجأ الطرفان إلى المفاوضات، ونصت المعاهدة على ما يلي:

- أوصى ريتشارد بأن يجعل صلاح الدين، ابن أخته هنري كونت شامبانيا في كنفه وتحت رعايته، وألح على ضرورة التوصل إلى اتفاق ودي.
- أن يسمح صلاح الدين لقسم من اللاتين بالبقاء في الأماكن المقدسة
- أن يتنازل للمسيحيين عن الساحل الفلسطيني، بشرط تدمير استحكامات عسقلان. لكن ريتشارد رفض النظر في تدمير عسقلان.

في الوقت الذي كانت فيه رسل المفاوضات تتناقل بين ريتشارد وصلاح الدين، أعد ريتشارد خطة وترك المفاوضات دون توقيع، فتحرك باتجاه عكا، وخطط للهجوم المفاجئ على بيروت بمهدف الاستيلاء عليها، ثم يحرر منها إلى أوروبا.

استغل السلطان الناصر الفرصة، ففي 15 رجب 588هـ / 27 جويلية 1192م، خرج بجيشه من بيت المقدس ووصل إلى يافا في مساء نفس اليوم، وبدأ على الفور في الهجوم على المدينة، وتدفع الجيش الإسلامي إلى داخل المدينة بعدما استطاعوا إحداث ثغرة في الأسوار، والقصف بالحجارة لمدة ثلاثة أيام، وفي نفس اليوم الذي قارب فيه صلاح الدين من الوصول إلى مدينة يافا، وجهت رسالة استعجالية إلى ريتشارد تعلمه بالخبر، فأسرع بالرجوع لنجدتها، وقد سلك طريق البحر وحينئذ وقعت معركة كان الانتصار فيها من نصيب صلاح الدين، فاستسلم ريتشارد وأرسل رسولا يطلب التفاوض والصلح مع صلاح الدين<sup>1</sup>، لكن صلاح الدين لم يستثمر هذه الفرصة لصالحه<sup>2</sup>، مما أدى بريتشارد لشن هجوم مضاد، وكان النصر من نصيب ريتشارد، مما جعل صلاح الدين يأمر جيشه بالارتداد.<sup>3</sup>

#### المطلب الرابع: صلح الرملة ووفاة صلاح الدين.

توجه السلطان صلاح الدين باتجاه الرملة، في الوقت الذي كان فيه يمد ريتشارد بالفاكهة والثلج عندما مرض ريتشارد، فوصل رسوله مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه<sup>4</sup>، وجدد الطرفان الصلح لعدة أسباب، فبالنسبة للصليبيين:

- كان مرض الملك الإنجليزي عائقا في سبيل استمرار الهجومات والنشاط العسكري، فظهر عجزه عن قيادة قوته والتخطيط السليم.

<sup>1</sup> رنسيان، المرجع السابق، ج3، ص133-135.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص200.

<sup>3</sup> رنسيان، المرجع السابق، ج3، ص135.

<sup>4</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص232. أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص189، 190.

- وصلت أخبار إلى ريتشارد، مفادها أن أخاه ارتكب أعمالاً سيئة في إنجلترا تتطلب منه العودة في أسرع وقت إلى بلاده لحلها.
  - الإرهاق الذي أنهك كاهل الصليبيين.
  - ما أظهره كل من ابن أخته هنري والطوائف الدينية الحرية من أنهم لم يتقوا في سياسته.<sup>1</sup>
- أما بالنسبة للظروف التي أدت بالمسلمين إلى عقد الصلح فنجد :
- النزاعات والخلافات التي حدثت بين الأكراد والأتراك في جيش صلاح الدين، وازدياد قوة العدو.
  - خشية السلطان من حدوث الخلاف بعد وفاته داخل أسرته، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة.<sup>2</sup>
- بعد عدة أيام من المفاوضات، عقد صلح الرملة في 22 شعبان 588هـ/ سبتمبر عام 1192م، حيث حمل السلطان العرض النهائي للصلح، فوقعه ريتشارد قلب الأسد.
- وأثبت رسل صلاح الدين أسمائهم إلى جانب اسمه على المعاهدة ونصت الاتفاقية على ما يلي:
- أن تكون عسقلان بأيدي المسلمين، وأن يجري تخريبها.
  - أن يكون للصليبيين كل من يافا وعملها، وحيفا وعكا وأعمالها، وقيسارية وأرسوف، باستثناء الرملة والناصرية وصفورية.
  - يحق للنصارى زيارة بيت المقدس، ولكلا الطرفين الحق في اجتياز حدود بلاد كل منهما مع حرية.
  - أن تكون الرملة واللد بين المسلمين وبين الفرنج مناصفة.
  - اشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية، واشترط الصليبيون في المقابل دخول صاحب أنطاكية وطرابلس مع الصلح.<sup>3</sup>
  - على أن تكون مدة المعاهدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر.<sup>4</sup>
- **تعقيب على صلح الرملة.**

اعتبر صلح الرملة أشهر صلح عقد بين الجانبين الإسلامي والصليبي، وسبب ذلك أنه انتهى بمغادرة ريتشارد للشرق الإسلامي، ثم أعقبته وفاة صلاح الدين بعد ذلك بمدة قصيرة، وكانا أشهر قائدين أجتبهما الحروب الصليبية.<sup>5</sup>

<sup>1</sup> رنسيان، المرجع السابق، ج3، ص139.

<sup>2</sup> سهيل طقوش، المرجع السابق، ص201. فايد حماد محمد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، ط1، بيروت، (د.ت)، ص234. يوسف حسن غوانمة، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1995، ص41.

<sup>3</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص234، 235. أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص190.

<sup>4</sup> نفسه.

<sup>5</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص202.

لم يكن السلطان صلاح الدين فرحا بالصلح، ذكر أبو شامة<sup>1</sup>: أن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: "اخاف ان اصالح...". لكنه رأى في الصلح الطريقة الأنسب لحفظ الإسلام، فما كان الصلح إلا توفيقا وسعادة من الله.

عادت الصلات التجارية بين الشرق والغرب إلى سابق عهدها، وقدم الحجاج الصليبيون إلى القدس، كان عددهم هائلا، ففتح لهم السلطان الباب وأرسل معهم حرسا "الخفراء"، يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا، والهدف من هذا التصرف أن يقضي الحجاج فترة زيارتهم لبيت المقدس ويرجعوا إلى بلادهم، فيأمن المسلمون شرهم.

ومن الجدير بالملاحظة، الأخلاق العالية التي حرس السلطان صلاح الدين على التحلي بها، وذلك من خلال تسامحه مع الفرنج في أكثر من موضع، ومن بين مظاهر الشهامة حرصه على تأمين الفواكه والتلح لريتشارد أثناء فترة مرضه.<sup>2</sup>

### • وفاة صلاح الدين

أقام صلاح الدين ببيت المقدس إلى أن علم برحيل ريتشارد، فالتفت إلى تنظيم الشؤون الإدارية لإقليم فلسطين، وكان قد بلغ آنذاك الرابعة والخمسين<sup>3</sup>، وقد بلغ به المرض أشده، ففي 16 صفر عام 589هـ/ 21 فيفري 1193م، انتابته حمى صفراوية، دامت 12 يوما، يروي لنا أبو شامة وابن شداد<sup>4</sup> تفاصيل مرضه، فقد كان مرافقين له حتى أيامه الأخيرة، وقد عرف صلاح الدين بصبره واحتسابه، فقد قاوم المرض في هدوء، وفي يوم 24 صفر/ أول مارس انتابت السلطان غيبوبة، وبعد صلاة الصبح من يوم الاربعاء 27 صفر/ مارس و بينما كان الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة يتلو أمامه القرآن وحتى انتهى لقوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ"<sup>5</sup>، فتح صلاح الدين عينيه وتبسم، وسمعوه وهو يقول: "صحيح"، ثم وافته المنية في قلعة دمشق، فجهزه القاضي الفاضل والقاضي المؤرخ ابن شداد، غسّله خطيب دمشق، واجتمع عليه الناس وصلّوا عليه، ودفن فيها، وعمّ الحزن الكبار والصغار، وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام، ثم حصرت تركته وكانت دينارا واحدا سينك وثلاثين درهما، ولم يخلف من المال سواها ثابتا أو منقولا.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> المصدر السابق، ج4، ص193.

<sup>2</sup> محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص203.

<sup>3</sup> رنسيमान، المصدر السابق، ج3، ص146.

<sup>4</sup> انظر أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص211. ابن شداد، المصدر السابق، ص308.

<sup>5</sup> سورة الحشر، الآية 22.

<sup>6</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص249. أبو شامة، المصدر السابق، ج4، ص211. ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص224. عبد

العزیز سيّد الأهل، أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1964م، ص225.

تبرع صلاح الدين بكل أمواله وأملاكه، فمات رحمه الله، ولم يكن يملك لا جاهاً ولا مالاً، وهذا ما يفعله الخلفاء، فأخلاق الملك والقائد المسلم كلها توافرت في الملك الناصر، وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً، فلا زال لحد اليوم بطلاً نفخر به من بين قادة الأمة الإسلامية عبر التاريخ.

## المبحث الرابع: تعقيب حول علاقة صلاح الدين مع الإمارات الصليبية.

يرجع تاريخ العلاقات الأيوبية على عهد صلاح الدين مع الإمارات الصليبية إلى مرحلتين أساسيتين، تميزت المرحلة الأولى باتخاذ الدولة الأيوبية مركز الدفاع، وذلك بفضل سياسة صلاح الدين التي تقتضي الموافقة على المعاهدات قصيرة المدى وتوقيع الصلح مع الآخر الفرنجي، وذلك من أجل التفرغ لبناء جبهة إسلامية متحدة، أما الدور الثاني فتميز بالعمل العسكري من الجانبين، فبعد إكمال توحيد الجيوش الإسلامية من طرف صلاح الدين تفرغ لتنفيذ أنبل مهمة يتطلع لها العالم الإسلامي ألا وهي تحرير واسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين.

كانت حادثة استيلاء أرناط على قافلة التجار المسلمين، رغم أن مدة الاتفاقية التي عقدت بينهما لم تنتهي بعد، بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس بالنسبة للجيوش الإسلامية، على رأسها السلطان صلاح الدين الذي عزم على قتله وأقسم على ذلك إن وجدته، وبهذه الحادثة يكون أرناط الجبان قد جانا على نفسه وعلى أمة بأكملها، ساءت الأوضاع بين الطرفين وأخذت العمليات العسكرية تحل محل الاتفاقيات، فتمخض عن هذه الأحداث المتسارعة معركة حطين

وانتصر السلطان الناصر واستطاع فتح بيت المقدس، وتلقين الصليبيين درسا قاسيا ولا سيما أرناط الذي قتله السلطان بيده ليكون قد وفى بقسمه وكان هذا يوم بمثابة عيد للمسلمين.

أظهر صلاح الدين خلقا ساميا وتسامحا لا مثيل له مع الأسرى والنساء والأرامل والأطفال وضحايا الحرب الصليبية، حيث أنه ساعدهم وسهل لهم أمر الجلاء إلى بلادهم حتى أنه دفع من ماله الخاص.

استمر السلطان ناصر في عمليات الفتح حيث أنه كان بمجرد وصوله إلى حصن من الحصون يستسلم صاحبه لصلاح الدين فكانت بمثابة جولة عسكرية له.

ازدادت ثقة المسلمين بهذه الفتوحات، لكن المؤرخين لاموا على صلاح الدين، لأنه ترك مدينة صور حيث تجمع فيها الصليبيون واستطاعوا إعادة تشكيل نواتهم من هذه المدينة، واستطاعوا هزيمة المسلمين مرة أخرى، فهذا اللوم على صلاح الدين بحجة أنه لا ينبغي أن يكون بهذا القدر من التسامح، وأن لا يغفل بعد انجاز هذا الفتح الباهر، لكن الحقيقة ما دمتنا لم نعيش ظروفه ولم نكن في واجهة الحكم، لا نستطيع قول شيء، فربما فكر صلاح الدين بأن الجنود والعساكر المسلمة قد تعبت بعد كل هذه المعارك وكانوا بحاجة إلى الراحة وغيرها من الأسباب.

تكتل هؤلاء للدفاع عن المدينة واستعصت على الملك الناصر، في نفس الوقت وصلت إمدادات الصليبيين بعد حملة هائلة أقامها ونظامها الرهبان والقسيسون لجلب المساعدات والتنظيم والاستعدادات للحملة الصليبية الثالثة، وبعد التقاء صفوفهم من كل حدب وصوب نجح الصليبيون في إسقاط عكا، وفي معركة أرسوف كانت الخسارة من نصيب المسلمين، وتعد أول معركة مكشوفة بعد معركة حطين، وبالرغم من أن الأمور لم تحسم لصالح الصليبيين إلا أن الانتصار يعد معنوي، حيث ساهم في استرجاع بعض الثقة التي أضعها الصليبيون من قبل، على عكس الجيوش الإسلامية.

اقترح ريتشارد قلب الأسد الهدنة، حيث اجتمع بالملك العادل واستطاع هذا الأخير إقناع أخيه صلاح الدين بها، لكن فيها من الشروط ما أثار سخط السلطان وسخريته منها، ولعل أبرز شرط تعجب منه صلاح الدين هو أن يتزوج الملك العادل بأخت ريتشارد.

واستمرت المفاوضات من جديد لكنها لم تكن ذات فائدة على الطرفين، وأدت سوء الأحوال من الجانبين إلى عقد صلح الرملة الذي دام لثلاث سنوات وثلاثة أشهر، لتوفى بعدها كل من ريتشارد وصلاح الدين، لينتهي عصر مليء بالإثارة والمعارك الحامية، والمعاهدات الدبلوماسية، ليدل في الأخير أن المسلمين بقيادة صلاح الدين كان خصما لا يستهان به في الحروب والمعاهدات على حد سواء، في الشجاعة والأخلاق والتسامح والعفة والقيادة، فرحم الله قادة الأمة الإسلامية وحفظها من كل شر، وأعلى الله كلمة المسلمين رغم كيد العدى.



## ثانيا: الإمبراطورية البيزنطية.

## المبحث الأول: بداية التقارب السياسي.

توفي الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين في عام 577هـ/ 1181م، لتنتهي بذلك مرحلة التعاون الصليبي البيزنطي، وتبدأ الإمبراطورية مرحلة جديدة في سياستها التي اقتضت التعاون مع الأيوبيين ضد الصليبيين<sup>1</sup>، ومن بين أسباب هذا التحول:

أن الإمبراطور كومنين، كانت له علاقات صادقة وحسنة مع الصليبيين، وكان يجبهم ويعمل لمصلحتهم، فكان رجلا مؤثرا، لكنه لم يتمتع بالهيبه التي يجب أن تكون في عقلية الحكام، حيث أن أطماعه في التوسع على العالم المسيحي أدت به إلى مغامرات لا تستطيع الإمبراطورية الدخول فيها، ولا تحمل نفقاتها.<sup>2</sup>

أثارت تصرفات كومنين مانويل التي وصفها المؤرخون بالحماسة، والافتقار للدهاء السياسي غضب البيزنطيين والسكان المواطنين الذين ألقوا اللوم على السلطة الحاكمة، جراء التدهور السريع للوضع الداخلي والخارجي، حيث أضحت نقاط ضعف الإمبراطورية مكشوفة بعد وفاة مانويل.<sup>3</sup>

إن الخطأ الذي ارتكبه كومنين هو التسرع في تحويل إرادته إلى أفعال، دون التأكد من الموارد المتبقية لديه، ودون الاطلاع على خزينة الإمبراطورية<sup>4</sup>، حيث أرسل هذا الأخير جنوده إلى إيطاليا وإلى داخل هنغاريا، في الوقت الذي كان يجب عليهم التمرکز على حدود الأناضول أو البلقان، فكانت موارد هذا الأخير لا تكفي أو تسمح له بالتنازلات التجارية، التي قام بمنحها للمدن الإيطالية مقابل مميزات دبلوماسية عاجلة، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية، لم يحسن التصرف مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفذ أبدا، فكانت معركة ميريو سيفاليوم ضربة ميمته لجيشه الذي كان لديه من المسؤوليات ما يكفي، فلم تملأ الخزينة الإمبراطورية منذ وفاته قط.<sup>5</sup>

خلف كومنين ولده أليكسيوس الثاني الذي لم يتجاوز سنّه آنذاك أحد عشرة سنة، وقد تولت والدته الإمبراطورية، لكنها تعرضت لكراهية سكان القسطنطينية بحكم أنها من اللاتين، واتخذت مستشارا لها وهو أليكسوس كومنين، واعتمدوا على

<sup>1</sup> Niketas Chaniates, Ocity of Byzantium, Trans, by: Hany Magoulis Detroit, 1984, p125.

<sup>2</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص483. ج.م. هسي، العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1997م، ص169.

<sup>3</sup> Ostrogorsky George, History of Byzantine State, Tr: Joan Hussy Banil Black Well, Oxford, 1968, p: 394.

<sup>4</sup> Ostrogorsky, Ibid, p : 381

<sup>5</sup> رنسيمان، المرجع السابق، ج2، ص483. Niketas Chaniates, p 131.

العنصر اللاتيني، خاصة التجار الإيطاليين، مما جعل تنافرا بين الشعب والسلطة الحاكمة، واعتبروا أن وصوله إلى الحكم غير مقبول، لأنه يفتقد القدرة فقد كان لا يحظى بشعبية.<sup>1</sup>

وبعد تلك الأحداث السياسية، أليكسوس الثاني أنشاء علاقات مع الأيوبيين الذين بلغوا في تلك الفترة شهرة وتطورا كبيرين، فكان أول اتصال بين الإمبراطور وصلاح الدين، عندما أرسل أليكسيوس مبعوثا إلى القاهرة في شهر صفر عام 855هـ/ جوان 1181م، من أجل عقد الصلح.<sup>2</sup>

لكن سرعان ما نشب تمرد على الإمبراطور من طرف أندرونيقوس كومنين، ابن عم مانويل عام 578هـ/ 1182م، الذي تغلب على الجيوش البيزنطية التي قاومته بسهولة، ولم تلق الإمبراطورية المساعدة إلا من اللاتين المقيمين في المدينة، وأدى هذا إلى وقوع مذبحه جماعية، ولم يبق على قيد الحياة إلا عددا قليلا من التجار الإيطاليين، الذين هربوا عبر البحر نحو الغرب، فأصبح الطريق مفتوحا إلى القسطنطينية أمام أندرونيقوس، فغضب هذا الأخير عند دخوله العاصمة على أليكسيوس الثاني، وأدخله السجن، وأما زوجها فقام بفقأ عينيه، أما الإمبراطورة فحكمت عليها بالإعدام شنقا، وأجبر ابنها أليكسيوس على التوقيع على حكم الإعدام، فأصبح بذلك إمبراطورا مشاركا بعد مرور شهرين فقط.

وبدأ بذلك عهد جديد في تاريخ الإمبراطورية.<sup>3</sup>

### المبحث الثاني: صلاح الدين والإمبراطور كومنين أندرونيقوس.

كان الإمبراطور البيزنطي على دراية بأنه سيتعرض للانقلاب والهجوم من طرف صقلية، مما جعله يفكر في حماية حدوده الشرقية، فلم يجد أفضل من صلاح الدين الذي اشتهر كقوة يخشاها العالم<sup>4</sup>، فسارع إلى إبرام معاهدة معه، هذا التصرف يكون قد قلب سياسة مانويل رأسا على عقب.<sup>5</sup>

في حقيقة الأمر جاء هذا التقارب بين القوتين لتعرض كل منهما إلى عدو مشترك، حيث أنه في الربع الأخير من القرن الثاني عشر ميلادي/ 6 هجري، تقارب كل منهما لمواجهة عدوهما، فالنورمان في صقلية كان أخطروهم على مصر، كما هو الحال بالنسبة لبيزنطة، وسلاجقة الروم في قونية، واستولوا على الكثير من الأقاليم البيزنطية في آسيا الصغرى،

<sup>1</sup> هسي، المرجع السابق، ص168، 169. رنسيما، المرجع السابق، ج2، ص484.

<sup>2</sup> المقريري، السلوك، ج1، ص185.

<sup>3</sup> رنسيما، الحضارة البيزنطية، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1997م، ص54، 55.

رنسيما، الحروب الصليبية، المصدر السابق، ج2، ص484-486.

<sup>4</sup> برز صلاح الدين كأقوى قائد مسلم في عصره، بفضل انتصاره على الصليبيين ونجاحه في توحيد الجبهة الإسلامية. انظر: حسنين محمد

ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983م، ص234، 235.

<sup>5</sup> رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ج2، ص486.

وأصبحوا بذلك يشكلون خطراً على مصر، بالإضافة لجزيرة قبرص التي قامت بثورة ضد القسطنطينية، وكذلك الصليبيون وحلفائهم الذين شكلوا تحالفاً ضد البيزنطيين وكذلك الأيوبيين على حد سواء، لتقاطع مصالحهم مع بعضهم البعض.<sup>1</sup>

كان كل من الطرفين قد تعرض للخطر من جانب أعداء مشتركين وبالضبط عام 581هـ/1185م، ناهيك عن المشاكل التي عانت منها الإمبراطورية، فقد عانى صلاح الدين أيضاً من نفس المشاكل الخارجية من طرف الإمارات الصليبية، وما زاد الأمر سوءاً تصرفات أندرونيقوس الطاغية، حيث ارتكب مجزرة تتمثل في قتل الكثير من اللاتين من أنصار الإمبراطورية في أنطاكية، وقام بنفي أحد أفراد أسرة كومنين أليكسوس إلى روسيا، فهرب منها والتجأ إلى ملك صقلية ويليم الثاني، وطلب منه المساعدة ضد أندرونيقوس كومنين، فاستجاب حاكم صقلية لطلبة وجرّد حمل سنة 581هـ/1185م واستطاع الاستيلاء على بعض الجزر.<sup>2</sup>

بعد الحصار الذي طبق على أندرونيقوس، وتعرضه لضغط مباشر من طرف النورمان في صقلية، لجأ إلى صلاح الدين أملاً في الحصول على مساعدة قد تبعد عنه الأخطار التي أحذقت به<sup>3</sup>، فأرسل بسفارة منتصف 581هـ/ صيف عام 1185م، يعرض عليه التحالف بناء على الشروط التالية:

- أن يظهر صلاح الدين الولاء للإمبراطور وأن يساعده في فتح فلسطين واقتسامها بينهما، مع احتفاظ البيزنطيين بالمدن الساحلية ما عدا عسقلان والمسجد الأقصى.
- في حالة ما تم الاستيلاء على آسيا الصغرى، تصبح من أملاك الإمبراطورية.

مقابل هذه الشروط، وعد الإمبراطور أن يساعد صلاح الدين في معركته ضد اللاتين في بلاد الشام، لم يعرف قرار صلاح الدين سواء كان بالإيجاب أو النفي، لأن أندرونيقوس كومنين خلع عن العرش في نهاية السنة جمادى الآخرة سبتمبر، قبل أن يصل الرد على شروطه من طرف صلاح الدين، وتوفي سنة 581هـ/1185م.<sup>4</sup>

أنه على الرغم من ميل صلاح الدين إلى التعاون مع البيزنطيين، فقد عد طلب الإمبراطور البيزنطي يبذل الولاء له مدعاة للسخريّة، ولا يمكن القبول به، نظراً لضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية آنذاك، مقابل التطور الملحوظ والسريع والمستمر لنفوذ الأيوبيين بقيادة السلطان الناصر، خصوصاً بعد أن نجح في ضم وتوحيد مصر وبلاد الشام، ناهيك عن الانتصارات

<sup>1</sup> - 9: Ehrenkreutz, Andrews, Saladin, State University of New York, Press, 1972, p : 199.

حسنين ربيع، المرجع السابق، ص 235.

<sup>2</sup> رستم، المرجع السابق، ج 2، ص 160، 161.

<sup>3</sup> محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 105. عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دار دمشق، ط 1، بور سعيد، 1980م، ص 283.

<sup>4</sup> زبدة عطا الله، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، دار الأمين، الإسكندرية، 1994م، ص 87، 88.

على الصليبيين، فلا يمكن للعالم الإسلامي الخضوع للإمبراطورية البيزنطية، كما هو مستحيل أيضا بالنسبة لصالح الدين أن يوافق على منحه بيت المقدس وساحل فلسطين، وهو الرأي الأرجح.<sup>1</sup>

### المبحث الثالث: صلاح الدين وإسحق الثاني أنجيلوس.

بعد اعتلاء إسحق أنجيلوس الحكم عام 581هـ / 1185م<sup>2</sup>، وصل سياسة التقارب التي بدأها من سبقه، لمواجهة الأعداء المتربصين حوله، فمن جهة النورمان في صقلية الذين هددوا القسطنطينية، والصليبيين في الشام والسلاجقة في آسيا الصغرى، وأقر معاهدة بعد أن راجعها وعدّل بعض محتوياتها.<sup>3</sup>

عند انتصار صلاح الدين في معركة حطين 583هـ / 1187م، قام بإرسال سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي مخيرا إياه على ما تم فتحه، قام أيضا بتسليم مائة وتسعين رجلا من رعايا وأسرى الدولة البيزنطية<sup>4</sup>، وقام صلاح الدين بإرسال هدايا قيمة منها: فيل، وخمسون من السروج التركية، وقد فرح بها الإمبراطور فقام باستضافة الرسول في قصر منيف في وسط القسطنطينية.<sup>5</sup>

لماذا أطلق صلاح الدين صراح الأسرى؟ ولما قام بهذه الخطوة؟ في الحقيقة كانت خطة صلاح الدين جد ذكية، حيث اتبع أسلوب سياسي ناجح ومن خلاله كسب ثقة الإمبراطور البيزنطي، والثقة هنا تعني وقف الحروب وتبادل الرسل، وهذا لصالح السلطان الناصر، حيث كسب ود الإمبراطور البيزنطي، وبهذا استطاع سلطان بفضله مهارته السياسية ضم عدو إلى صفه، وتحقيق الهدنة مع البيزنطيين لإكمال عملية الفتح وكسب محالف جديد إلى صفه.

هذا وقد تعهدت بيزنطة منذ عهد أليكسوس الثاني بعدم مشاركة أسطولها في أي حرب ضد صلاح الدين.<sup>6</sup>

<sup>1</sup> تاريخ الأيوبيين، المرجع السابق، ص 106. Niketes, op.cit. pp, 167-171.

<sup>2</sup> اعتلت الحكم أسرة حاكمة جديدة هي أسرة أنجيلوس، بهدف تحسين الأوضاع التي آلت إليها الإمبراطورية خلال فترة حكم أسرة كومنين 576هـ-581هـ / 1180م-1185م. لكن الأمور لم تتحسن بل كانت الدولة في طريقها إلى الزوال. انظر: محمد محمد مرسى الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994، ص 380، 381.

<sup>3</sup> زبيدة عطا الله، المرجع السابق، ص 88. محمد مؤنس غوانمة، الإمبراطورية البيزنطية، دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 2007م، ص 384.

<sup>4</sup> محمد مؤنس عوض، الإمبراطورية البيزنطية دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط 1، القاهرة، 2007م، ص 348-349.

<sup>5</sup> ابن شداد، المصدر السابق، ص 115، 116. نورمان بيتر، الإمبراطورية البيزنطية تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تر: حسين مؤنس، محمد يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 1، القاهرة، 1950م، ص 187.

<sup>6</sup> عادل عبد الحافظ حمزة، العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص 151.

كما أرسل الإمبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين، يهنئه فيها بفتح بيت المقدس، وذلك سنة 583هـ/1187م، حيث أبدى إعجابه بشجاعة صلاح الدين بهذا الفتح العظيم الذي عجز عنه الكثير<sup>1</sup>، كما أبدى عن فرحته لإطلاق صلاح الدين أخوه أليكسوس الثاني الذي كان أسيراً لدى الصليبيين.<sup>2</sup>

تواصلت المراسلات وتبادل الهدايا بين الطرفين، بعد أن أرسل صلاح الدين الهدايا، حيث وصلت سفارة أخرى من الجانب البيزنطي 584هـ/1188م، وكان السلطان متواجداً في عكا، وكان من أبناء تلك السفارة، استعدادات التي تجري على قدم وساق من طرف الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية جديدة إلى الشرق لاسترداد بيت المقدس.<sup>3</sup>

ومن الجدير بالذكر، أن الإمبراطور انجلوس قام بمكاتبة السلطان وأقام الخطبة له بمسجد القسطنطينية، وهو الجامع القديم الذي بني في عهد الأمويين، وقد كان يوماً مشهوداً للمسلمين وأقام الدعوة الإسلامية العباسية.<sup>4</sup>

وما إن وصلت أخبار الحملة الألمانية بقيادة فريديريك بربروس، أرسل انجلوس إلى صلاح الدين يخبره فيها وليعلمه بتحركات الصليبيين وتحضيراتهم للحملة، وقيل أنه فعل ذلك لأنه لم تقلقه انتصارات صلاح الدين بقدر ما كانت تقلقه أطماع الصليبيين.<sup>5</sup>

أثارت هذه المراسلات استياء وغضب الإمبراطور الألماني، حيث حقد عليه هذا الأخير، بل كتب إلى ابنه هنري يطلب منه أن يُحرّض الباب إلى تجريد حملة صليبية ضد اليونانيين المنشقين عن الكنيسة سنة 587هـ/1189م.<sup>6</sup>

ونتيجة للضغط الكبير الذي تعرض له الإمبراطور البيزنطي أنجلوس، أعلن خضوعه واستسلامه لمطالب فريديريك، وعقد معه صلحاً، وكتب إلى السلطان الناصر رسالة تتضمن استعطافاً واعتذاراً لسماحه بمرور الجيوش الألمانية أراضيها إلى الشرق، لمساندة الصليبيين في حملتهم في محرم 587هـ/أفريل 1190م<sup>7</sup>، وأخبره بعجزه عن ردهم وقمعهم من العبور عبر بلاده، كما نوه في رسالته وطمأن السلطان الناصر في نص رسالته بأنهم كانوا يعانون من الضعف وخسائر في عسكريهم وانتشار الأمراض مما أدى إلى تقلص عددهم.<sup>8</sup>

<sup>1</sup> أبو شامة، المصدر السابق، ج3، ص415. ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص248. المقرئ، المصدر السابق، ج1، ص211.

<sup>2</sup> تشارلز م. براند، البيزنطيون والسلطان صلاح الدين الأيوبي، (581-589هـ/1185-1192م). ومواجهة الحملة الصليبية الثالثة، تر: جلال حسني، عمادة البحث العلمي، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2018، ص13.

<sup>3</sup> نفسه، ص13، 14.

<sup>4</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص328.

<sup>5</sup> حسنين، المرجع السابق، ص242. محمد مرسي الشيخ، المرجع، ص383.

<sup>6</sup> ارنست باركر، الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العربي، دار النهضة العربية، ط2، بيروت، 1967، ص88.

<sup>7</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج2، ص318.

<sup>8</sup> ابن واصل، المصدر نفسه، ص318، هويدا نبيرة، علاقات المودة والمراسلات بين صلاح الدين الأيوبي والأباطرة البيزنطيين، مجلة كلية الآداب، العدد 62، الإسكندرية، 2012م، ص1-46.

فعل الإمبراطور البيزنطي كل هذا من أجل الاستفادة من تحالفه مع صلاح الدين باسترداد قبرص، والقضاء على المشاكل الداخلية، وتوسيع حدود دولته إلى ما كانت عليه من قبل، لكنه في الحقيقة لم يستفيد من هذا التحالف سوى فائدة بسيطة، ألا وهي تحويل بعض الكنائس اللاتينية في بلاد الشام إلى المذهب الأرثوذكسي، وهو ما جلب له مشاكل كبيرة مع الصليبيين.<sup>1</sup>

فشلت الحملة الألمانية، وتشتت الجيش بوفاة قائدها الإمبراطور بربروس، وفي صيف 587هـ/ 1191م، أرسل الإمبراطور البيزنطي أنجلوس رسالة شفوية مع رسوله إلى صلاح الدين مع بعض الهدايا، واستقبله أخوه العادل، إذا أنه لا يزال يُكن له الصداقة، وكما طلب منه أن يقوم بحملة بحرية مشتركة ضد اللاتين في جزيرة قبرص، لكن صلاح الدين لم يستجب هذه المرة لمطالبه، والجدير بالذكر أن صاحب قبرص أرسل إلى صلاح الدين عام 588هـ/ 1192م يعاهده على أن يكون صديقا له، وطلب مساعدته ضد البيزنطيين في حالة ما اعتدوا عليه، لكن السلطان قرر اتخاذ موقف الحياد ورأى ذلك الخصام بينهم يعود بالنفع على الأمة الإسلامية، لأن في افتراق كلمتهم نصرة للمسلمين.<sup>2</sup>

وعلى أي حال بقيت العلاقات الودية بين البيزنطيين والأيوبيين حتى بعد رفضه الرسالة الأخيرة من طرف أنجلوس، واستمرت إلى حين وفاة الملك الناصر صلاح الدين سنة 589هـ/ 1192م.<sup>3</sup>

#### المبحث الرابع: تعقيب على العلاقات البيزنطية-الأيوبية

كانت بداية العلاقات الدبلوماسية بين القوتين، منذ عهد أليكسوس الثاني ابن مانويل كومنين، حيث أنه وجد في صلاح الدين فرصة ذهبية، حيث يستطيع من خلال تحالفه معه استرجاع المجد الضائع للإمبراطورية، خصوصا وأنها في تلك الفترة كانت تعاني من المشاكل الداخلية.

العلاقات بين صلاح الدين والإمبراطورية البيزنطية، لم تكن حديثة تلك الحقبة أي فترة العصور الوسطى، إنما امتدت على مدى العصور، الدولة البيزنطية كونت علاقات طيبة مع المسلمين، جابتها في بعض الأحيان أيضا صدام فرضته طبيعة الحدود المشتركة واختلاف المصالح.<sup>4</sup>

كانت سياسة بيزنطة تهدف إلى ضرب القوى الخارجية المجاورة لها والقريبة من بعضها البعض، من أجل تقوية الإمبراطورية، فقد كان تهدف إلى استمرار الصراع الأيوبي مع الصليبيين في بلاد الشام<sup>5</sup>، لأن صدام القوى مع بعضها

<sup>1</sup> حسنين محمد ربيع، المرجع السابق، ص 240، 241.

<sup>2</sup> ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص 416، 420.

<sup>3</sup> هويدا نبيرة، المرجع السابق، ص 24.

<sup>4</sup> أحمد إبراهيم العدوي، الإمبراطورية والدولة الإسلامية، ملتزم للطبع والنشر، الجزيرة، 1951، ص 107.

<sup>5</sup> محمد فتحي الشاعر، المرجع السابق، ص 5، 6.

يؤدي إلى إضعافها، وهو ما ينعكس بالإيجاب على الانتقال من مرحلة الضعف التي شهدتها الإمبراطورية إلى استرجاع الهيمنة والقوة التي أضعفتها

لا شك أن الدبلوماسية الأيوبية مع البيزنطيين، قد نجحت في تجنب الاصطدام العسكري معهم، حيث أنه عمل على تبادل الهدايا والمراسلات مع الأباطرة البيزنطيين على حد سواء، وبهذا يكون قد اتقى شرهم، وتفرغ لتوحيد دولته والقضاء على الوجود الصليبي من خلال توجيه ضربة حاسمة لهم<sup>1</sup>، ولقد اتخذ أسلوب العمل الدبلوماسي عن طريق ارسال السفارات أو عن طريق الهدايا الفاخرة لتعزيز الدبلوماسية بين الطرفين.

اتسمت العلاقات البيزنطية الأيوبية بالود ظاهراً، لكنها كانت في الباطن مبنية على المصالح والمكاسب الشخصية، ومحاولة كل منهما القضاء على الكيان اللاتيني في الشام، وكان هذا التعاون سبباً في فشل الحملة الصليبية الثالثة، حيث جعلت العلاقات الودية بينهما، توجيه الصليبيين لحملةهم الرابعة نحو بيزنطة سنة 601هـ/ 1204م.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> هويدة نبيرة، المرجع السابق، ص 29.

<sup>2</sup> نفسه، ص 31.

# الخاتمة



## الخاتمة:

وبعد دراسة موضوع العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية السياسية مع الدول المجاورة في عهد صلاح الدين الأيوبي، توصلت إلى جملة من النتائج والاستنتاجات أهمها:

- قيام الدولة الأيوبية على أنقاض الخلافة الفاطمية في مصر، بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وسعيه لتوحيد صفوف الجبهة الإسلامية أدى إلى انتهاج هذا الأخير أسلوب العمل الدبلوماسي بينه وبين الدول المجاورة لدولته لتحقيق هذه الغاية، من خلال السعي إلى الحفاظ على الشرعية وتثبيت ركائز الوجود الإسلامي بالمنطقة، وذلك لاعتماده مزيج بارع من العمل العسكري والدبلوماسي.
- كان على السلطان الناصر العمل على إعادة هيكلة دولته وتوحيد صفوف المسلمين تحت جبهة واحدة، كي يتفرغ للجهاد الإسلامي ضد الإمارات الصليبية ووراء قاعدة صلبة وموحدة، فانتهج هذه السياسة مع الزنكيين بدءاً بنور الدين محمود عن طريق إرسال الرسل، و نفس الشيء بعد وفاته والصراع على الحكم من طرف أمراء ابنه الصالح اسماعيل، فكان في كل مرة يبعث سفرائهم ويؤكد نيته بأنه لا يسعى نحو السلطة والمنصب، وإنما يبحث عن وسيلة ليحقق بها اتحاد المسلمين، وبهذا نجح في كسب الرأي العام حوله، وتمكن من ضم بلاد الشام والجزيرة إضافة إلى مصر تحت حكمه، وتلقى من قبل الخليفة العباسي تقليداً شاملاً بحكم هذه المناطق.
- واصل السلطان الناصر سياسته مع القوى الإسلامية خاصة الخلافة العباسية، حيث كان قد فرغ من أمور دولته، واستطاع رسم وتوسيع منطقة نفوذه، وعمل على تعزيزها، وإضفاء الشرعية على حكمه من خلال إرسال السفارات المتكررة للخلافة العباسية وتأكيد ولائه كلما سنحت له الفرصة والخطبة له في جميع فتوحاته، فكان ذلك السبب الرئيسي في تعزيز أواصر الصداقة وقبول طلبات رسل السلطان بالخلع والتشريفات نتيجة لسياسة صلاح الدين التي أدت إلى تعزيز الثقة بينهما. ورغم الصعوبات التي واجهته خلال سعيه إلى بناء جبهة متحدة من حركات التمرد والخيانة والتحالف مع العدو الصليبي ضده كالحشاشين، إلا أنه تصدى لمحاولات اغتياله باستعمال الوسائل العسكرية، وتحالف مع زعيمهم ضد الصليبيين.
- اتضح أسلوب السلطان الأيوبي من خلال سعيه إلى كسب أعوان وحلفاء ضد خصمه الصليبي، واتخذ الأسلوب نفسه في علاقته مع سلاجقة الروم، حيث انتهج في كل مرة أسلوباً معين حسب ما تقتضيه الظروف، فكان يعقد الصلح معهم، ومن جهة أخرى يمارس العمل العسكري من أجل ردعهم والحفاظ على مناطق نفوذه، وحماية جبهته المتحدة من الأخطار الخارجية والداخلية المترتبة على حد سواء.
- سادت بين دولة صلاح الدين والإمارات الصليبية فترتين من الصراع، تميزت الفترة الأولى بالدفاع وتفضيل السلطان الناصر لعقد المعاهدات للتفرغ لتنظيم أمور دولته، والدور الثاني من الصراع اتخذ شكلاً من أشكال الصراع العسكري يتخلله في كثير من الأحيان المعاهدات والاتفاقيات، والسفارات التي كانت ترسل بين الطرفين، وهذا بعدما أتم

- السلطان الناصر بناءً جبهته المتحدة، ونلاحظ أن هذه السفارات كانت تعد في ظروف استثنائية من أجل وضع حد للحرب مباشرة كما أنها كانت مؤقتة، تنتهي مهمه كل رسول أو مبعوث أو سفير بانتهاء تلك السفارة.
- ترجع الانتصارات الباهرة التي حققها السلطان وتحرير بيت المقدس من أيدي العدو الصليبي، إلى الدهاء السياسي الذي يمتلكه الملك الناصر، والذي بفضل قوت حظوظ المسلمين وتوجت جهوده بالانتصارات.
  - أتت هذه المعاهدات والاتفاقيات بين صلاح الدين وملوك الصليبيين بعد المعارك التي خاضها الطرفان والتي أدت إلى ضعف في كيان كل من الطرفين، وأيضا اعتبرت كحل مؤقت لتنظيم صفوفهم الحربية، بحيث أن هذه العمليات العسكرية كانت لها انعكاسات على الأوضاع الداخلية، فكان لا بد من اللجوء إلى هذا الأسلوب.
  - ما ميز الحياة السلمية التي اقتضتها فترة المهادنة، هو نقضها من طرف الجانب الصليبي في العديد من المرات، على عكس صلاح الدين الذي حرص على انتهاء فترة الصلح رغم قدرته على ذلك.
  - تميزت المعاهدات المبرمة بين الطرفين بالتحضير المسبق لها من كلا الجانبين وتبادل الهدايا الفاخرة وإعداد الولائم والاستقبال الحسن الذي من شأنه إعطاء صورة جيدة تليق بمقام دولتهم.
  - أما بالنسبة لعلاقة صلاح الدين مع البيزنطيين فقط حرص على تسخير كل العوامل لكسب ودهم وتحالفهم معه ضد الصليبيين، وكان من نتائج العلاقات السلمية بين الصليبيين والبيزنطيين مع صلاح الدين ضمان استمرار المبادلات التجارية، وتنمية اقتصاديات هذه الدول مع بعضها البعض.
  - كما حرص صلاح الدين في عقده للمعاهدات مع الآخر الفرنجي أن تكون فترة هذه المعاهدات قصيرة لا تتعدى في الغالب السنة الواحدة ما عدا صلح الرملة الذي كان أطول معاهدة صلح، وذلك لكي يتسنى له من فرض زمان ومكان المعركة الفاصلة، وتهيئة الظروف الملائمة الداخلية والعالمية من حوله، وكذلك من أجل استنزاف قوة العدو.
  - لعب صلاح الدين الأيوبي دورا بارزا في علاقاته مع جيرانه من الدول، حيث أنه بفضل حنكته وبعد نظره استطاع قيادة المسلمين والاتجاه في سبيل تحقيق الانتصارات المتتالية التي خلدت اسمه وشكلت من دولته قوة تخشاهما الخصوم وتسعى للتحالف معها، ونجح بتوقيع آخر معاهدة سلام وجلاء الصليبيين من أرض الشام بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة، وتوفي هذا القائد البطل تاركا وراءه تاريخا حافلا بالإنجازات، وبقي اسمه رمزا من رموز الحضارة الإسلامية في الشجاعة والحنكة والقيادة والأخلاق، التي يشهد له بما أعداؤه قبل أحبائه.

# الملاحق

"رسالة عمادية" عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي بعد نصرته حيطين والفتوحات التي تلقنتها:

ولقد كتبنا في الزبور من بعدي الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون، والحمد لله على إنجاز هذا الوعد وعلى نصرته هذا الدين الخنيف من قبل ومن بعد، وجعل من بعد العسر يسرا، وأحدث من بعدي أمر أمرا، وهو أن هذا الأمر الذي ما كان الإسلام يستطيع عليه صبورا وخطب النبي بقوله ولقد مننا عليك مرة أخرى، فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والأخرى في هذه الدولة التي عتق فيها من رق الكتابة والزمان كهيفة قد استدار، الحق ببهجته قد استنار، والكفر رد ما عنده من الشعار، والخدام يشرح في هذه الفتح العظيم والنصر الكريم فيشرح صدور المؤمنين ويسود وجوه الكافرين ويورد من البشرى ما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث العشرين من ربيع الآخر سلخه وتلك سبعة أيام وثمانية أيام حسوما هدموا فيها نفوسا وجسوما، فأصبحوا وقد ههوا في الهاوية كأنهم أعجاز نخل خاوية، وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة كما كانت بالكفر باكية، ففي يوم الخميس الأول فتحت طبرية، والجمعة والسبت كانت الكسرة التي أبقت منهم بقية لا يقوموا لهم بعدها قائمة، أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، فتحت مكة بالأمان ارم ذات العماد، وصليب الصلبوت عندنا مأسور، وقلب الكفر الأسير يجسه المكسور مسكور، وأيضا الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد القبضنة وعلق رهنه فلا يقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها، وصارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطب المنابر.

(وعد العماد الأصفهاني الحصون التي فتحت)

وقال في آخر الكتاب: (وما يتأخر النهوض إلى البيت المقدس، وهذا أوان فتحه، وقد دام عليه ظلام الضلال، وقد آن أن يفسر فيه الهدى عن صحة السلام).<sup>1</sup>

<sup>1</sup> وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص172.

ملحق رقم 2:

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي عن معركة حطين 583هـ / 1187م

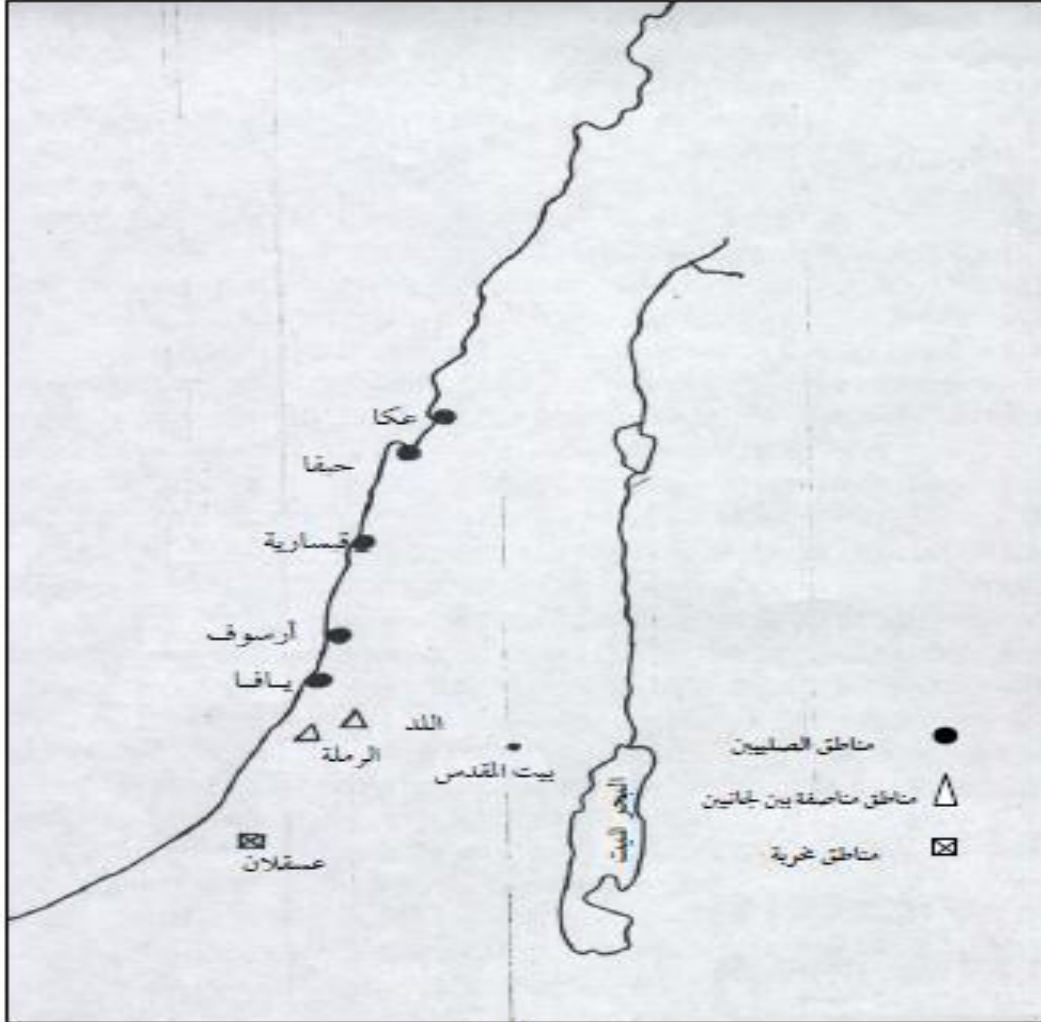
وجاء فيها:

صَبَّحَ الخادم طرية، فافتضَّ عُذْرِيَّتَهَا بالسَّيفِ، وهجم عليها هجوم الطَّيفِ، وتفرَّقَ أهلها بين الأسر والقتل، وعاجلهم الأمر فلم يقدرُوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن معه من كُفَّارِهِ، ولم يشعر أن ليل الكُفْرِ قد آن وقت إسفاره، فأضْرَمَ الخادم عليهم نارا ذات شرار، وأذْكَرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسلم هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطناهما فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا) وأسر الإبرنس -لعنه الله- فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفَّى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدَّمي دولته، وكبراء ضلَّالته، وكان القتلى تزيد على أربعين الفاً، ولم يبق أحد من الدَّأوية، فله هو ومن يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من ثغر عكا، والإسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله، والكفر قد ثبتت أوجاله ودنت آجاله.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> معالي عبد السلام الحلبي، رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية، كلية الأدب، قسم التاريخ، غزة، 2013م، ص 161.

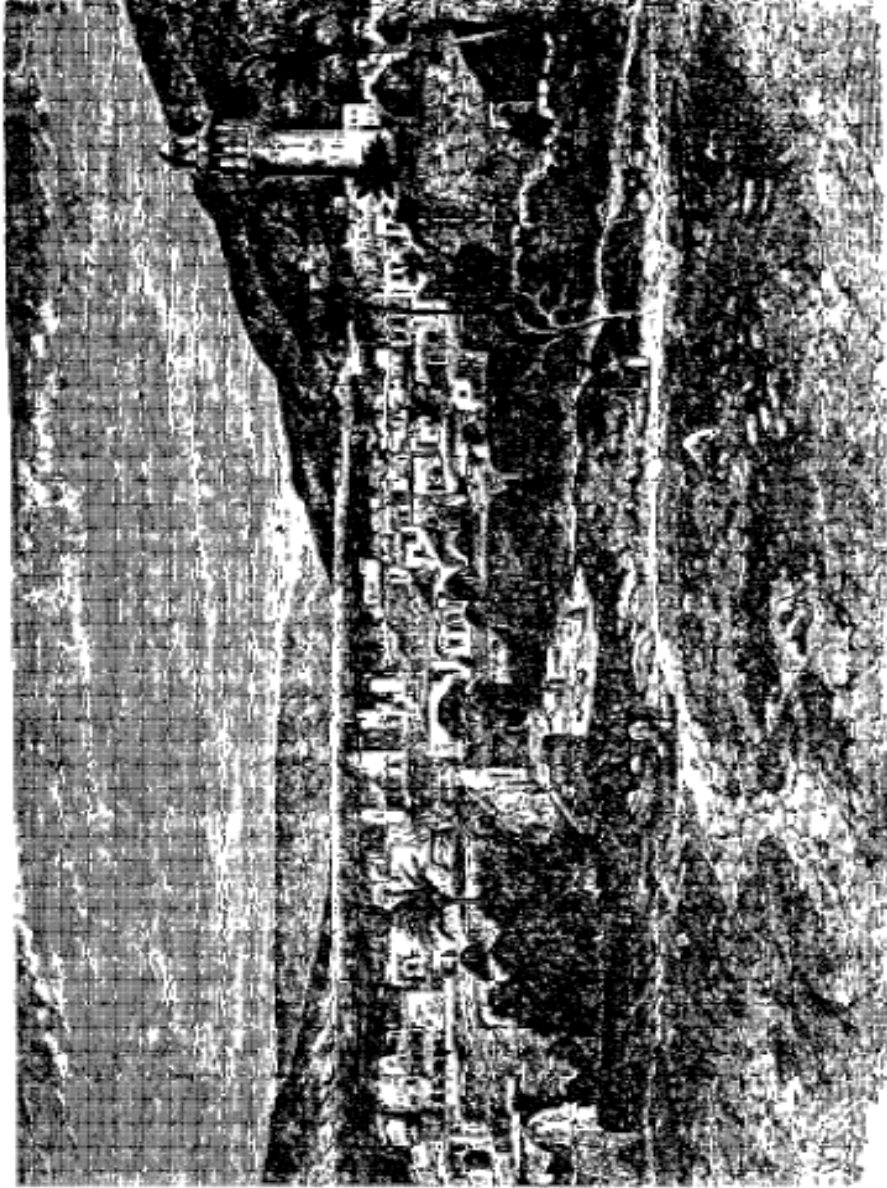
# 1 خريطة توضح بنود هدنة الرملة



خريطة (2)  
بنود هدنة الرملة 1192م (1)

1 نقلًا عن: أشرف صالح محمد سيد، الدبلوماسية الأيوبية الصليبية، ص38.

<sup>1</sup>صورة لطبرية وبحيرة الجليل



طبرية وبحيرة الجليل

<sup>1</sup> نقلا عن: قدرى قلعي، صلاح الدين الأيوبي، ص 317.

## قائمة المصادر والمراجع:

### القران الكريم

### الحديث النبوي

### 1) المصادر العربية

1. ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكرم الشيباني 630هـ/1233م، الكامل في التاريخ، الأجزاء 09-10، دار صادر، بيروت، 1966 م.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تح: عبد القادر بطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1963م.
2. ابن العبري: أبو الفرج جمال الدين غريغو ريوس بن هارون بن توما الملطبي، (ت 685هـ/1286م)، تاريخ مختصر الدول، تصح: الأب أنطون طلحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط1، 1994م.
3. ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة (660هـ/1262م)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1954م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج4، دار الميسرة، بيروت، 1979م.
4. ابن الكازروني: زهير الدين علي بن محمد البغدادي الكازروني (ت 697هـ/1297م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تح: مصطفى جواد، المؤسسة العامة للطباعة، بغداد، 1970م.
5. ابن الوردي: زين الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس المعري الكندي (ت 749هـ/1349م)، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
6. ابن ثغري: بردي: جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين (ت 874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، 1936م.
7. ابن خلكان: أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م)، تحقيق: إحسان عباس، مج6، دار صادر، بيروت، 1977م.
8. ابن شاهنشاه: اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، (ت 732هـ/1331م)، مضممار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، 1401هـ.
9. ابن شداد: أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد الأسدي الموصلبي (ت 632هـ/1234م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، 1317هـ.
10. ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوه بن درع القدشي الحصلي، البصراوي الشافعي الدمشقي (ت 774هـ/1373م)، البداية والنهاية، ج1، تحقيق: عبد الله بن عبد الحسن التركي، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، 1998م.



11. ابن واصل: ابو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله المازني التميمي الحموي الشافعي، (ت 697هـ / 1298م)، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب، الاجزاء 1-2، تحقيق: جمال الدين الشيال، (د.ت).
12. أبو الفداء: الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، (ت 732هـ / 1331م)، المختصر في أخبار البشر، ج 3، تحقيق: محمد رينهم محمد عزب، يحيى سيد حسين، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).
13. أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، (ت 665هـ / 1267م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الأجزاء 1-4، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2002م.
- عيون الروضتين في أخبار الدولتين، تح: أحمد البيسومي، منشورات بوزارة الثقافة، دمشق، 1992م.
14. الأصفهاني: أبو عبد الله بن محمد بن محمد بن حامد صفي الدين الملقب بعماد الدين الأصفهاني، (ت 597هـ / 1201م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، المطبعة الخيرية، مصر، 1322هـ.
15. البنداري: سنا برق الشامى، تح: فتيحة التبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، 1997م.
16. البيهقي: السنن الكبرى، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، ط 1، بيروت، ج 9، 1356هـ.
17. الدواداري: أبو بكر بن عبد الله بن أيك (غير معروف)، كنز الدرر وجامع الغرر.
- الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج 7، تحقيق: عبد الفتاح عاشور، مركز ودود للمخطوطات، القاهرة، 1972م.
18. الذهبي: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز (ت 748هـ / 1347م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث وفيات 571هـ-580هـ، ج 7، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط 1، بيروت، 1996م.
- سير أعلام النبلاء، ج 20-21، تح: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1984م.
19. السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيرى (ت 911هـ / 1505م)، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 2003م.
20. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تح: إبراهيم زبيق، دار الرسالة العلمية، ط 1، بيروت، 2013.
21. القلقشندي: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الفزارى (ت 821هـ / 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الأجزاء 4-13، تحقيق: عبد القادر زكار، وزاره الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983م.
- مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)

22. المرتضى الزبيدي: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (1205هـ / 1790م)، ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تح: صلاح الدين منجد، دار الكتاب، ط2، بيروت، 1983م.
23. المقرئزي: أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد (845هـ / 1442م)، السلوك لمعرفة دور الملوك، ج1، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
24. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج21-27، تح: نجيب مصطفى فواز، حكمة كشلي فواز، دار كتب العلمية، ط1، لبنان، 2004م.
25. ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626هـ / 1229م)، معجم البلدان، الأجزاء 3-4، دار صادر، بيروت، 1977م.

## (2) المراجع العربية:

1. ابن ميسر: أخبار مصر، تح: عمري ماسية، المعهد العلمي الفرنسي، ج2، القاهرة، 1919م.
2. أحمد ابراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ملتزم للطبع والنشر، الجيزة، 1951م.
3. أحمد الشامي: صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1991م.
- تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1985م.
4. أحمد فؤاد السيد: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب (567هـ-648هـ)، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2004م.
5. أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1986م.
- في التاريخ الأيوبي والمملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1992م.
6. أسامة حسن: الناصر صلاح الدين، دار الأمل للنشر والتوزيع، ط1، الهرم، 1997م.
7. أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم، ودينهم وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، دار المكشوفة، ط1، بيروت، 1956م.
8. حسن الأمين: الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز التقدير للدراسات الإسلامية، ط2، بيروت، 1997م.
9. حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1983م.
10. حمدي عبد المنعم محمد حسين: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.
11. زبيدة عطا الله محمد: الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، دار الأمين، الإسكندرية، 1994م.
12. سعيد أحمد برجايوي: الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت، 1984م.
13. سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1972م.
- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1965م.

14. عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دار دمشق، ط1، بورسعيد، 1980م.
15. عادل عبد الحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م)، 2001م.
16. عبد العزيز سعد الأهل: أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1964م.
17. عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية التاريخ السياسي (567هـ-648هـ/1171م-1350م)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.
18. عرب دكتور: تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضاراتهم، منتدى سور الأزبكية، بيروت، 2010م.
19. علي بيومي: قيام الدولة الأيوبية في مصر، دار الفكر الحديث للنشر، ط1، القاهرة، 1952م.
20. فايد حماد محمد عاشور: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الأيوبي، دار الاعتصام، ط1، بيروت، (د.ت).
21. قاسم عبده قاسم: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، (د. ت).
- في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، 2010م.
22. محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، ط2، تونس، 1982م.
23. محمد سهيل طقوش: تاريخ الحروب الصليبية حروب الفرنجة في المشرق، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.
- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2002م.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام والجزيرة، (569هـ-661هـ/1174م-1263م)، دار النفائس، ط2، بيروت، 2008م.
24. محمد محمد مرسى الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م.
25. محمد مؤنس عوض: السياسة الخارجية للدولة النورية في الصراع الإسلامي الصليبي (541هـ-569هـ/1146م-1174م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، الهرم، 1998م.
- الإمبراطورية البيزنطية، دراسة في تاريخ الأسر الحاكمة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الهرم، 2007م.
26. محمد يونس غوانمة: معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنجة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، عمان، 1995م.
27. وفاء محمد علي: قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 1407هـ.

### 3) المصادر والمراجع الأجنبية المعربة

#### أ. مصادر

1. وليام الصوري: الحروب الصليبية، ج4، تر: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994.
2. يعقوب القيتري: تاريخ بيت المقدس، تر: سعيد البيشاوي، دار الشروق، ط1، عمّان، 1998م.

#### ب. المراجع

1. أرزنت باركر: الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريفي، دار النهضة العربية، بيروت، 1990م.
2. أمبرويز: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ريتشارد قلب الأسد، تر: سهيل زكار، (دون ناشر)، دمشق، 1998م.
3. تشارلز م. براند: البيزنطيون والسلطان صلاح الدين الأيوبي (581هـ-589هـ / 1185م-1192م)، مواجهة الحملة الصليبية الثالثة، تر: جلال حسني عبد الحميد سلامة، عماد البحث العلمي، جامعة القدس المفتوحة، رام الله، 2018م.
4. ج.م. هسي: العالم البيزنطي، تر: رأفت عبد الحميد، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، الهرم 1997م.
5. ستيفن رنسيومان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، تر: نور الدين خليل.
6. السير هاملتون حب: صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي، تحر: يوسف إشباط، ط2، بيروت، 1995م.
7. لويس سيدير: خلاصة تاريخ العرب، تر: محمد أحمد عبد الرزاق، مؤسسة هنداوي، 2017م.
8. نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالإسلام، تح: حسين مؤنس، محمد يوسف زايد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1950م.
9. ول ديورانت، قصة الحضارة، تر: محمد بدران، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، ج2، مج4، (د.ت).

#### 4) المراجع الأجنبية:

1. A.J.Arbeny, the legacy of Persia, the clarendon press, oxford, 1953.
2. Bernard, Lewis the Arabs in History, Hutchinson's, university library, London, 1954.
3. Ehrenkreuts, Ardrews, Saladin, state University of New York press, 1972.
4. Ostrogorsky George, History of Byzantine state, Tr: Joan Hussy Basil Black well, Oxford, 1968
5. Saunders, A history of medieval Islam, Taylor and Francize library, 2002

6. Stanly Lane-poole, History of Egypt, vol VI, 1901.
7. Stevenson, the crusades in the east, Cambridge, 1907.
8. Vasile, History of the Byzantine Empire, vol2, Wisconsin press, Canada, 1952.

#### 5) الرسائل الجامعية

1. جلييلة حسن محمد أحمد: الصراع الأيوبي الصليبي وأثره في سقوط الدولة الأيوبية (589هـ-650هـ/1193م-1252م)، بحث مقدم لنيل ماجستير الآداب في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة شندي، 2010م.
2. معالي عبد السلام الحلبي: رسائل القاضي الفاضل السياسية في عهد صلاح الدين الأيوبي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية، كلية الأدب، قسم التاريخ، غزة، 2013م.
3. نوري دريد عبد القادر، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976م.

#### 6) الدوريات

1. رامي إبراهيم محمود: محاولات اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي من قبل جماعة الحشاشين، مجلة دراسات بيت المقدس، العدد 21، 2021م.
2. هويدا محمد أحمد بنيرة: علاقات المودة والمراسلات بين صلاح الدين الأيوبي والأباطرة البيزنطيين (577هـ-579هـ/1181م-1192م).

## فهرس المحتويات

المحتويات :	
شكر وعرهان .....	
إهداء .....	
المقدمة .....	أ-ر
فصل تمهيدى: لمحة عن قيام الدولة الأيوبية .....	
المبحث الأول: نسب الأيوبيون.....	10
المبحث الثانى: بداية حكمهم .....	10
المبحث الثالث: الأوضاع الداخلىة فى مصر والحملات النورية .....	11-13
المبحث الرابع: ظهور صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث .....	13-15
المبحث الخامس: حوصلة حول قيام الدولة الأيوبية .....	16-17
الفصل الأول: صلاح الدين والزكيون .....	
المبحث الأول: نماية الحكم الفاطمى وأثره على العلاقات بين الطرفين نور الدين محمود وصلاح الدين.....	19-22
المبحث الثانى: صلاح الدين والصالء إسماعيل .....	22-25
المبحث الثالث: التوسع الأيوبي باتجاه الشام .....	26-28
المبحث الرابع: الدور الأيوبي بعد وفاة الصالء إسماعيل .....	29-32
المبحث الخامس: تعقيب حول علاقات صلاح الدين مع الزكيين .....	33-34
الفصل الثانى: سياسة صلاح الدين مع القوى الإسلامية .....	
المبحث الأول: الخلافة العباسية .....	36-42
المبحث الثانى: الطائفة الإسماعيلية (الحشاشون) .....	43-45
المبحث الثالث: سلاجقة الروم .....	46-49
المبحث الرابع: تعقيب على علاقة صلاح الدين مع القوى الإسلامية .....	50-52
الفصل الثالث: الدبلوماسية الأيوبية مع الإمارات الصليبية والإمبراطورية البيزنطية .....	
أولاً: الإمارات الصليبية .....	54-83
المبحث الأول: الدور الأول من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين (570هـ-582هـ / 1174م-1186م).....	55-60
المبحث الثانى: الدور الثانى من الصراع بين صلاح الدين والصليبيين (585هـ-589هـ/1186م-1193م).....	61-73
المطلب الأول: الأوضاع التى سبقت معركة حطين .....	61-63
المطلب الثانى: معركة حطين .....	64-66
المطلب الثالث نتائج معركة حطين .....	66-73

81-74.....	المبحث الثالث: صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة
75-74.....	المطلب الأول: وصول الإمدادات الصليبية
76-75.....	المطلب الثاني: سقوط عكا ومعرك آرسوف
78-76.....	المطلب الثالث: المفاوضات بين العادل وريتشارد قلب الأسد بعد معركة آرسوف
81-78.....	المطلب الرابع: صلح الرملة ووفاة صلاح الدين
83-82.....	المبحث الرابع: تعقيب حول علاقة صلاح الدين مع الإمارات الصليبية
90-84.....	ثانيا: الإمبراطورية البيزنطية
85-84.....	المبحث الأول: بداية التقارب السياسي
87-85.....	المبحث الثاني: صلاح الدين والإمبراطور كومنين أندرونيقوس
89-87.....	المبحث الثالث: صلاح الدين وإسحق الثاني أنجلوس
90-89.....	المبحث الرابع: تعقيب على العلاقات البيزنطية-الأيوبية
93-91.....	خاتمة
98-94.....	الملاحق
104-99.....	قائمة المصادر والمراجع
106-105.....	فهرس المحتويات

## ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع العلاقات الخارجية للسلطنة الأيوبية في فترة صلاح الدين الأيوبي ما بين 569هـ-589هـ/ 1174م-1193م، وهي فترة مهمة في التاريخ الإسلامي، تمثل السنة 569هـ/ 1174م سنة تولي صلاح الدين الوزارة على مصر، والتي تلتها انقراض الخلافة الفاطمية حتى وفاة السلطان الناصر بعد نجاحه في استرداد بيت المقدس من العدو الصليبي عام 589هـ/ 1193م.

الهدف من هذه الدراسة هو الغوص في طبيعة العلاقات الأيوبية مع الدول المجاورة لها زمن صلاح الدين، ويعني هذا البحث بدراسة العلاقات الدبلوماسية على وجه الخصوص، من خلال تسليط الضوء على أهم المعاهدات والاتفاقيات المبرمة، وتمثل وترتكز هذه الدراسة على أهم الدول التي تكونت بين السلطان وبينهم علاقات وهي كالتالي: الزنكيون، والقوى الإسلامية، الإمارات الصليبية، الإمبراطورية البيزنطية.

اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي، ودعمه بالمنهج التحليلي لكي تتحقق أهداف البحث، ثم جمع مادة الدراسة من المصادر العربية ومجموعة من المراجع العربية والمعرية والانجليزية، والرسائل الجامعية وكذلك الدوريات.

من خلال هذه الدراسة اتضح للباحث أن فترة حكم صلاح الدين للدولة الأيوبية تعتبر من أهم الفترات التي مرت في تاريخ الأمة الإسلامية، والعالم ككل، من خلال ما أنجزه هذا القائد البطل في تعاملاته السلمية الدبلوماسية وتمتعه بالذكاء الذي مكّنه من إبرام معاهدات، انعكست إيجابيا على مكانة دولته وحكمه، والذي مهد وفتح الطريق إلى نجاحات باهرة لعل أبرزها هو فتح بيت المقدس، ليتوفى هذا القائد البطل تاركا وراءه تاريخا حافلا بالإنجازات.



## **Abstract:**

This research deals with the issue of the foreign relations of the Ayyub Sultanate during the period of Salah al-Din al-Ayyubi between (569 AH – 589 AH / 1174 AD – 1193 AD), which is an important period in Islamic history, as the year (569 AH / 1174 AD) represent the year Salah al-Din al-Ayyubi assumed the ministry over Egypt, which was followed by the extinction of the Fatimid caliphate until the death of sultan Al-Nasir after his success in reclaiming Jerusalem from his Crusader enemy in the year (589 AH/ 1193 AD).

The aim of this study is to delve into the nature of the Ayyubid relations with the neighboring countries in the time of Salah al-Din, and this research is concerned with the study of diplomatic relations in particular. By shedding light on the most important treaties and agreement concluded, and this study is based on the most important countries that formed between the Sultan and them relations, which are as follows: the Zangids, the Islamic forces, the crusader Emirates, and the Empire Byzantine

Material in this research followed the descriptive historical method, and supported it with the analytical method in order to achieve the objectives of the research, and then collected, the study from Arabic sources and group of Arabic, Arabized and English references, university theses as well as periodicals.

Through this study, it became clear to the researcher that the period of Salah al-Din's rule of the Ayyubid state is considered one of the most important periods that passed in the history of the Islamic nation and the world as a whole, through what this heroic leader accomplished in his peaceful diplomatic dealings and his enjoyment of intelligence that enabled him to conclude treaties, which reflected positively on the status of his state and his rule, which paved and opened the way to brilliant successes, the most prominent. This heroic leader passed away, leaving behind a history full of achievements.